

محمد الحسين المظفر

الثقلان

الكتاب والعبرة

محمد الحسين المظفر

الثقلان الكتاب والعرة

مكتبة فينوي الحديث

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط یدیل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وله الحمد وانجد وصلاته وسلامه على صفوته محمد وعترته

كلمة المجمع الديني عن الكتاب والمؤلف

- ١ -

لقد قال قلم اللجنة ، وهو يقدم كتاب الشيعة والامامة
لفضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد حسين المظفر ان الشيخ مثال
من امثلة النشاط والحزم قليل النظير ، والحق انه كذلك وتشهد له
اضارة محاضراته الاسبوعية في لجنة (المجمع الثقافي الديني
لمنتدى النشر) التي تزخر بالوان من المحاضرات القيمة في
مواضيع شتى علمية وادبية وما هذه المحاضرات التي يقدمها
(المجمع) اليوم إلا بعض ما تحفل به تلكم الاضارة وحسبنا ان
نذكر اقراء باثره الخالد (الصادق) الذي خرج من المطبعة بجزيته

في العام الماضي ليدل الناس على ما وفق اليه الشيخ من الجلد
والثابرة على استقصاء تاسم المراجع القديمة التي لا يقوى على
معاينة ما منيت به من تقدم في الاسلوب ورداءة في الطبع غير
القليل من الرجال ثم ليدلهم على تبخره وتدقيقه وعلى ذوقه في
تبويبه وتنسيقه واخراج به هذه الحلة التي تعجب الناظر
وتستهوي القارى .

— ٢ —

ورسالته هذه دليل آخر على نشاط الشيخ وصبره فحديث
الثقايين حديث مشهور مستفيض الزرود في كتب الحديث
المشهورة يمر به الناس فلا يحفلون لدلالته ولا يلتفتون اليها ولكن
الشيخ ينظر الحديث من وجهة عقلية ويتأمل فيه فيخرج من
تأملاته بمحاضرات ثلاث كبيرة يلقها على اعضاء المجمع في
اسابيع ثلاث ثم يعدها المجمع للطبع في ضمن ما اخرجه من
كتب قيمة واذا الحديث كما يرى الشيخ نص في معناه ولا يكتفي
بذلك بل يعرض لجميع ملابساته فيعرضها بأسلوبه الشائق .

— ٣ —

ولعل القراء يعقبون علينا لتأخرنا عن مواصلة طبع الكتب

التي حصلت على رضى الكثير منهم فاعطوها في صحف السالم
العربي وفي رسائلهم التي كادت ان تملأ اضرابة كبيرة ولهم
الحق في هذا العتب لانهم لا يعلمون ما نهانيه من تأخر الطباعة
وقلة المطابع وحبهم ان يعلموا ان اللجنة بعثت ببعض كتبها
الى مطابع بغداد ولكنها هي الاخرى - اعني مطابع بغداد -
لم تفسح المجال إلا بعد صبر طويل وسيوافي القراء (كتاب المنطق)
لفضيلة المعتمد العام لجمعية منتدى النشر الشيخ محمد رضا المظفر قرياً
انشاء الله ولينتظر القراء ان نوافيهم بالكتب جهداً استطاعتنا ما ساعدتنا
المطابع في النجف ، مادام نشاط المجمع الثقافي يتضاعف في
كل لحظة بفضل رئيسه الجليل ادامة الله وكثر في رجال
العلم امثاله .

قلم اللجنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الان والالطف ، والرحمة والعطف ، وصلاته
وسلامه على صفوة البشر ، محمد وعترته الغرر ، الثقل الكريم ،
وعدل القرآن العظيم ، الذين من تمسك بهما اهتدى ، ومن
تخلف عنهما ضل وهوى .

التقدير

الكتاب والعبرة

وبعد فان من حظوة المرء ان يتلقى دينه عن برهان
ودليل ، يوصلانه الى البصيرة واليقين ، وكان من توفيقه جل
شأنه ان هداني الى الاسلام دين الفطرة ، فكنت عليه بالفطرة
الى ان ابصرت رشدي فقامت لدي على صحته براهين تفوت
حد الاحصاء ، وما كان العقل لينفرد بقبول هذا الدين المستقيم ،
بل كادت كل جارحة ان تلمس وتحس الايمان ايقانا بآياته .
وأحسب ان رسوخ هذه العقيدة في النفس ونوطها

القلب ، ذلك التوطن الذي لا يبتغي عنه بدلا ولا تحويلا ، ولا
يعتريه تضعضع ولا صدوع ، طارئ من اشتراك الحواس
والجوانح والجوارح كلها مع العقل في قبول تلك العقيدة
وتلقيها .

و بتلك الفطرة كان ولأني لعنة نبي الرحمة والسلام
صلى الله عليه وآله وسلم وقولي بامامتهم ، فمن اليوم الذي نطق به لساني
باسم هذا النبي الامي - محمد - انطلق باسماء عترته لاسيما - علي -
وعلى تلك الفطرة درجت الى ان بلغت من الادراك والمعارف
مبلغا لا يقبل الله تعالى معها الايمان بلا برهان ، فاثبات علي
ادلة بالنزول منها تقتنع البصيرة بوجوب ذلك الولاء ، وصحة
تلك الامامة ، فكانت العقيدة مزججة من الاسلام والايمان ،
ومن النبوة والامامة .

وقد شدّ الكتاب والسنة أزر العقل على الذهاب الى
امامة العترة وولائهم ، وقد أوردت شطراً منهما في كتاب
- عصور الشيعة - وجئت بالبرهان العقلي على هاتيك الامامة في
رسالة - الشيعة والامامة -

واستطردت في كتاب العصور حديث (الثقلين)

واوجزت البيان عن مدلوله ، دأبى فيما ذكرته هناك من آية ورواية ، وكان هذا الحديث الشريف جديراً ببسط القول عن منطوقه ، لما جمعه من مقاصد جليhle حقيقة بالرعاية والعناية ، وأجد ان هذا الحديث وحده يغني البصير في ولاء العترة اهل البيت وامامتهم عن كل برهان سواه .

وما اكثر من كتب وما كتب في شأن هذا الحديث ولكن سلاسل الفاظه ، وفصاحة بيانه ، لا تحوجك الى سبر هاتيك الكتب المبسوطة ، في الحصول على ما يدل عليه هذا الحديث الشريف ، بل القاؤك بنظرة واحدة على فصيح عبارته يرجعك وانت مطمئن القلب بما دل عليه ، واثق النفس بما افاده .

إن مما منح به نبينا العربي صلى الله عليه وآله وسلم فصاحة المنطق ، وكان حقيقاً بتلك الفصاحة ، لأنه وليد تلك المدرة التي جمعت فصحاء العرب ، المجتهدين في انتقاء البليغ من الالفاظ ، وهو بعد في أفصحهم بيتاً ، وأفضلهم معارف ودراية ، ورضيع تلك البادية النقية ، التي تغذت الهواء الطلق وحاربت البطنة بقلة الغذاء ، فحقت منها الطباع والابدان وصفت منها الافكار والارواح ، وانت خير كيف تدني

المره هذه الخلال من مراقي الفصاحة والبلاغة .

ولو لم تكن له تلك الولادة وذلك الرضاع لكان له من النبوة المحل الارفع من بليغ البيان ، لأن النبي يجب ان يكون افضل اهل زمانه في شؤون الفضل ، فوجب ان يكون افصح الناس ليقوى بفصيح منطقه على تبليغ الناس وافهامهم ، واقامة الحجة عليهم بالبيان ، ولا تغلب حجة احد حجته ، ولا يعي امام اهل الفصاحة والبلاغة .

وإن من مميزات بلاغته ان بيانه مفهوم لكل احد ، العام والخاص ، والعالم والجاهل ، والفصيح والالكن ، والذي والنبي ، خصوصاً فيما يريد به إعلام هؤلاء جميعاً ، واقامة الحجة عليهم كافة ، وقطع المعاذير عنهم اجمع .

حديث - الثقلين - من ذلك البيان البليغ الذي غني به اعلام الناس عامة ، عن أمر فيه حياة الأمة السياسية والدينية بل ان في الامامة حياة الأمة من كل ناحية ، أليس الامام قائماً بوظائف الرسول ، ولا تفوته إلا النبوة ، تلك المنزلة الخاصة ، قالامام المرجع لها تيك المقاصد السامية التي بشر بها الرسول

الا كرم في دعوته ، ودعا بها الناس الى اقتطاف ثمار السعادة عاجلة وآجلة ، وهذه المقاصد هي كل شيء في حياتي الأمة ، فالامة في حاجة لا مناص عنها الى ذلك الامام المصلح في جميع شؤون الحياتين .

فلما كان هذا الحديث الشريف معنيا به الأمة جمعا حق ان يكون من فصاحة البيان وسلاسة التعبير صالحا كل الصلاح لأن تقوم به الحجة عليهم جميعا ؛ ويقوى الكل على فهم القصد منه من دون عناء وكلفة .

وكان هذا الحديث الكريم من هاتيك الادلة التي ارغمني على الاعتقاد بامامة اولئك الفئة من اهل البيت ، وقادني الى القول بعصمتهم ، والزممتني بولايتهم ، والاذعان بامور أخرى تخصهم ، كما سنفصح عن بعضها ، فرغبت ان اسبك ما وصل اليه فهمي لتلك المقاصد منه بيانا ينطق به لسان القلم ، قلت كنت اصبت الهدف فتلك السعادة التي رجوتها من ارشاد نبي الرحمة والاصلاح (ص) ، وان اخطأ السهم الرمية فاجدر بك - ايها المؤمن - ان تأخذ بي الى سنن الطريق ، ومستقيم السنن ، فان المؤمن مرآة أخيه المؤمن ، ومن أحق من

الؤمنين بالنصيحة والتعاون للوصول الى معارج الحق، وماضائي
المنشودة إلا بلوغ الحق ، ونصرة الحق .

وها أنذا اضع ما فهمته من هذا الحديث الشريف أمام
بصرك و بصيرتك بعبارات ليس فيها تطويل يبعدك عن
القصد ، ولا وجازة تخل بالعرض ، واذا فاتني بعض أغراضه
أو اجتزت حدود مقاصده فامر لا غرابة فيه ، شأن عامة البشر
من لم تجب العصمة لهم ، وكان الخطأ غير مستكر منهم . .
واني لا تعوذ به عز شأنه من العمد في الخفاة ، واقتحام
الخطأ في القول والعمل ، كما أسأله تعالى ان يمجريني من السهو
والغفلة ، انه سميع مجيب .

نص الحديث

اختلفت الروايات في نص هذا الحديث الشريف ، غير
ان الاختلاف الذي جاء فيه لا يغير مقاده ، ولا يجعل منه
منزعا للتأويل الزائغ ، ولا ذريعة للفرار عما ألزم به منطوقه .
وهذا الاختلاف يشهد لما قيل : من ان الرسول
الامين (ص) نطق بمفاد هذا الحديث في عدة مواطن ،
مراعياً وحدة المعنى والغرض ، كما ان تعدد الرواة له وتعدد

الطرق لروايته ينبغي ان عن تعدد تلك المواطن ، ومن تلك المواطن حجة الوداع يوم عرفة عند مجتمع الناس ، ومنها يوم الغدير في خطبته ، ومنها مرض موته عند وصاياه لامته .

ونحن نورد لك أحد تلك النصوص ، اوسطها بياناً وظهوراً ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدأ ، ألا وانها لن يهترقا حتى يردا علي الحوض »

وجاءت في بعض نصوص هذا الحديث تصريحات عن الغرض المعني أوفر مما هو موجود في هذا النص ، امثال قوله (ص) : (اني تارك فيكم خليفتين) بدل لفظ - الثقلين - وقوله في آخره : (ولا تلهوهم فانهم اعلم منكم) الى غير ذلك ، تركناها أخذاً باواسط الامور ، وجعلنا لفظ هذا النص المتقدم هدف البيان ، ومقصد القول .

النشر

بلغ هذا الحديث الشريف من الشهرة ما اغنى عن استطراد مصادره ، فانه قد رواه الفريقان واعترفت به الفرقان

وعرفه الخاص والعام ، بل حفظه الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، فهو فاكهة الاندية ، وفي مذاق الافواه . حتى كاد ان يتجاوز حد التواتر ، ولطأ نينة نشير الى بعض تلك المصادر .

فهذا أحمد برويه في مسنده من طرق عديدة عن جماعة كثيرة انظر المسند (٣ : ١٧ و ٥٩) و (٤ : ٣١٧) و (٥ : ١٨٢ و ١٨٩) الى غيرها

وهذا مسلم برويه في صحيحه في فضائل علي عليه السلام من عدة طرق والحاكم برويه في المستدرک (٣ : ١٠٩) وابن حجر في صواعقه بعد الآية الرابعة من الآيات النازلة في فضل أهل البيت يقول : ثم اعلم ان الحديث التمسك بذلك طرقاً عديدة وردت عن نيف وعشرين صحابياً . والسيوطي رواه في (احياء الميت بفضائل أهل البيت) المطبوع في هامش (الاتحاف بحب الاشراف) من طرق كثيرة .

والشيخ سليمان برويه في ينابيع اللودة ص ٢٤ طبعة بمبي من طرق كثيرة جداً ، عن الترمذی وابن ماجه والطبرانی والثعلبي في تفسيره وعن كثير سواهم .

والحافظ الطبري في ذخائر العقبى ص ١٦ من عدة طرق
 إن استقصاء الرواة والطرق لهذا الحديث الشريف يخرجنا
 عن الصدد ، ويخرج هذه الرسالة عما وضمت له من الوجازة ، وقد
 عرفت أن هذا الحديث جاء طي حديث الغدير أيضا ، فكثير
 ممن روى حديث الغدير قد رواه ، فهل يا ترى كم يبلغ رواية
 الغدير والكتب التي ذكرته ، ولقد قيل : أن طرقه قد بلغت
 ماثنين وخمسين طريقاً وإن من يتصفح الكتب التي كتبت
 عن حديث الغدير لا يستبعد هذا العدد الجم ، ولو جاء حديث
 الثقلين ضمن البعض من هذه الطرق - وقد جاء فعلاً - لكان
 متجاوزاً حد التواتر .

وان شئت أن تستوضح الحال وتقف على حال السند
 وطرقه تفصيلاً فدونك الكتب المبسوطة ، وبغنيك منها
 كتاب العباة .

معنى الحديث

أصبح الاخذ بهذا الحديث لازماً ، والعمل به حتماً ، بعد
 أن أصبح حجة في سنده ، غير أننا نريد أن نفقه معنى الحديث
 لترى ما يرشدنا إليه ، ويدلنا عليه ، فنسير على ضوئه ،

ونستضي بمصباحه .

والحديث كما اشرنا اليه لا ابس فيه ولا تعقيد ولا
اجمال ولا اخلاق ، فسلاسة الفاظه ، وانتظام سبكه وفصاحته
بيانه تطمع كل احد في فهم مقاصده . من دون غور في
الاستخراج ولا تكلف في الاستنباط واليك ما افهمه منه .

ولا اريد أن افرض فهمي عليك ولكني اريد منك
أيها القاريء الكريم ان تنظر الى الحديث نظري اليه متجرداً عن
الزعات الطائفية . بعيداً عن العقائد المذهبية . لئلا نرى ما ذا بوصلنا
اليه هذا الحديث الشريف فاني لا ارى ان لهذا الحديث الكريم
اثراً قيمياً في توجيه الامامة ، وجعل القيم على الشريعة ، المستودع
لعلم الكتاب ، الذي به هداية الامة لو تمسكت به ، والامة
اليوم وقبل اليوم في حاجة كبرى الى الهداة الذين تجتمع بهم
الكلمة ، ويوحد المذهب ، ولا اجتماع ولا وحدة والمذاهب
شتى ، والآراء متفرقة ، والعقائد توحىها الالهواء ، فالحديث
على ايجازه يقودنا الى الوحدة سياسياً ومذهبياً ، وتلك من
معاجز بيانه ، وحججه البالغة .

أني تارك فيكم

جاء في بدء هذا الحديث المبارك قوله (ص) : (إني تارك فيكم) وهذا الخطاب يقصد به جميع الأمة ، كل جيل وجيل وكل عصر وعصر وهذا الأسلوب من البيان جاء على نهج أرباب المحاورات ويجرى على صيغ أوامر أهل الأمر ، ومن اليهم الحل والعقد وحين كان تبليغاً للحاضر والبادي والشاهد والغائب تنقطع عنده المعاذير ممن يزعم أن البلاغ لم يصل إليه بان الرسول (ص) نصب للأمة علماً يوضح لها ما أشكل من الكتاب ويعرفها ما تجهل من معالم الشريعة وإماماً يخلفه في أداء وظائفه عدا شعار النبوة وطابعها الخاص .

ونعرف الغرض المعني من هذه الكلمة — لو التبس علينا القصد وليس بملتبس — بمثل كلامه من رجال ينظرون إلى ما وراء اليوم ويرون أنفسهم مسؤولين عما في غد ومنه نتقرب إلى معرفة ما كان على الرسول (ص) من الوقوف لنصح الأمة وهدايتها عمر الدهر والقصد من كلامه الذي يريد به ذلك النصح والرشد لو غاب عنهم فإن الشيء يعرف

بنظائرہ واشباہہ .

ونضرب امثلة نفرضها من مواقف رجال مختلف مقاديرها
في المجتمع ومسؤولياتها امام الناس ليكمل لنا المقياس ونقوى على
الزينة . واليك شيئاً مما أريد فرضه .

فلوان احداً من سواد الناس يريد سفراً نأثكوله اهل وصبية
يقوم بتغذيتهم وتربيتهم وليس لهم سواء معول في الاعاشة والتقويم
وقال لهم عند محاولته السفر : اني تارك فيكم فلانا . فماذا تفهم
من هذه الكلمة اتراه يريد غير نصب الخلف عنه في القيام
بمهماتهم وتقويم اودهم لتسكن بذلك نفوسهم وتطمئن قلوبهم
لان النفوس من شأنها الفزع والهلع اذا فقدت الكفيل الضمين
والاب الخاني الرؤوف .

أو ان احداً من ارباب التجارة أو الصناعة وله مراجعات
ومراسلات وعمال وكتبة او معامل وصناع . وهو يريد السفر
بعيداً عن محله . وأنت تعلم كيف يثول أمر تجارته أو صناعته
اذا لم يجعل القيم النائب عنه في تسيير الامر فلو قال وهو على
أهبة السفر : اني تارك فيكم فلانا . اتراه ينني غير الخلف عنه
القائم مقامه في تسيير دفة اعماله والمرجع لهم فيما لهم من حق

وراتب ، وفيما له عليهم من حق ، فانه لا ينظم أمر كبير ولا يتم أمر جليل ، من دون زعيم يقوم على رأس ذلك الأمر والعمل .

وهكذا يتضح الأمر جلياً من أرباب الإدارة والحكم فانه لا يغيب أحدهم عن مقر وظيفته إلا ويجعل له الخلف في إدارة أحوال الناس ، وإن غاب ولو يوماً واحداً من دون نائب وخلف لم يأمن من اضطراب جبل الأمن ، ومن ارتباك الناس لوقوف أعمالها التي ترتبط بوظيفته ، فكيف إذا غاب زمناً طويلاً . اتراه يستتب الأمن ، ويسير النظام من دون خاف يقوم بتسيير البلاد ، ومن ثم لا يسوغون لذلك الإداري أن يغادر البلاد ويتركها هملاً من غير راع وسائس يقوم مقامه فلو قال عند سفره : إني تارك فيكم فلانا ، الست تراه يريد القائم مقامه في أداء وظيفته وإدارة أعماله المسؤول عنها .

ويظهر لنا الحال واضحاً في الملك ورعيته فيما إذا حاول الملك رحلة إلى بلاد أخرى ، أو أريد به ارتحالاً إلى الأخرى وقال للناس وكلهم قلب فزع حذراً من الإهمال أو الإخلال بجمل النائب عن شخصه ، القائم بكبير أعماله : إني تارك فيكم

فلانا ، فماذا تراه يقصد من هذا القول عند تلك الرحلة أو ذلك
الارتحال ، اتراه يعني غير نصبه مكانه وجملة الخلف من
بعده ، بماله من وظيفة وحق ، وما للناس عليه من حق ،
تطمينا لنفوس الجائشة ، وتهذبة للقلوب الخائفة ، لأن الرعية
تجد نفسها من غير سائس كالنعم بغير راع ، فاذا عرفت
الخاف بعد الساف هدأت بالاً واطمأنت جأشاً ، لا سيما اذا
كان في الامة من يطمع بالعرش ، وينتهز الفرصة للوثبة ، أو
كان هناك أعداء ينتظرون خلو البلاد من ذلك الملك ليثبوا على
عرشه ، ويطلقوا الجهود التي قام بها في خدمة البلاد واصلاحها
أفهل ياترى يفهم الناس من كلمته تلك والحال على ما عرفت غير
أنه يريد الاعلام عن الخليفة عنه ، والقائم باعماله عند غيابه .

ونعرف الحال من ككشب في العالم المرشد الذي افاد
الناس بنصائحه وتعاليمه - والناس في حاجة ابدأ الى المرشد
الصالح - فلما اراد هذا الدليل المرشد ان يغيب طويلا غيبة
آيب أو مفارق ، والناس لا تعرف من يصالح للارشاد من
بعده كما يعرفه ذلك العالم الناصح ، وهل ياترى ان اهل العلم
والعرفان ادرى بامثالهم ام سائر الناس ، ويجدد نفسه مسؤولا

أمام الله والعقل والناس لو تركهم وانفسهم يخطون خبط عشواء
في اختيار المرشد الناصح ، والعالم الصالح ، على ان الناس في كل
عصر غير تقيّة من اهل الزيغ والضلال ، أو ارباب المطامع
الشخصية ، فلو قال ذلك العالم المصلح وهو على جناح سفر : إني تارك
فيكم فلانا ، فماذا يفهم منه الناس الذين انفروا حوله . وهم
يبنظرون نصحه ورشده . أفلا يرونه انه دلهم على الخلف الناصح
الذي فيه الهدى والنجاة .

هذه أمثلة نزره وما أكثر امثالها اضحها نصب عينيك
لتقرب بها من فهم القصد من تلك الكلمة الكريمة التي وردت
في صدر الحديث الشريف . فان الشيء يعرف بنظيره . وان
هذا الاسلوب من البيان جار عند جميع الطبقات من البشر .
الذين يرون انفسهم مسؤولين عما وراءهم .

وما جاءت هذه الامثلة إلا عن مسؤولين عن ناحية
خاصة . واما لو كان الذي يحاول الغياب ممن يجمع مسؤوليات
عديدة . والناس لديه شرع سواء . يرعى حالهم من ناحيتي
المعاش والمعاد . ويروم لهم السعادة في الحياة العاجلة والآجلة
وليس في الناس مثله من يجمع شرف العلم وفضيلة العمل . ويضم

الى الدين الادارة حتى يفزعوا اليه عند غيابه . إلا ان يدلهم
هو على ذلك البديل الذي يوضح للقيام به ورواياته ، فاذا قال
لناس وقد شد رحله وقدم راحلته للسفر ، والناس حوله ينظرون
الى نبرات شففيه وقسمات وجهه التي تنبع في الرضى والغضب
والحزن والفرح تعاطيع صوته ، وتقطع عباراته ، وينظرون
منه النصيح والارشاد ، كما اعتادوه منه ولمسوه من قوله وفعله :
إني تارك فيكم فلانا ، فماذا يفهم منه ذلك الخالق الجاني حوله غير
أعلامهم عن جهل الخلف بعده لطفاً بهم وعطفاً عليهم ، ذلك
الخلف الذي يقردهم الى سبل السعادة والخير ، ويصددهم عن
مهاوي الشقاء والشر ، من الناحيتين السياسية والدينية ، وفي
الحياتين الغانية والباقية .

هذا ما يفهمه الناس في عرف المحادثات والمحاورات ؛
والوصايا والالزامات ، على ان ذلك القائل ليس له صفة إلهية
خاصة ، فكيف اذا كان سفيراً بين الخالق والخلقة ،
ومرسلاً رحمه للعالمين ، ليخرجهم من الظلمات الى النور ،
ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقوة الى السعادة ، وكان
ما ينطق به وحياً يوحى عليه شديد القوى ، فاذا قال وهو على

أهبة السفر الى الرفيق الاعلى ، قال وهو يعلم انه المسؤول عن
الامة جماء امام الخالق والخلق والعقل والمنطق ، قال وهو يعلم
أنه أهدى الى الخلف الصالح الناصح ، وأعرف بالامام الهادي ،
قال وهو يعلم انه لو ترك الدلالة على خلفه لم يسلم من الملامة ، قال
وهو يعلم انه مسؤول عن الامة من جميع نواحي حياتها دنيا
واخرى ، فانه المشرع والمنفذ والعالم والحاكم والمرشد والسائس
قال : إني تارك فيكم الثقلين ، فماذا ترى يقصد من كلمته هذه
اتراه يريد غير النص على الخليفة من بعده الذي يقوى على القيام
بوظائفه بعد غيابه ، وعلى التهوض باعباء مسؤوليته ، فرضا
لا رخصة فيه ، وتمييزا لا خيار به ، واماماً لا بديل عنه ، وانه
هو الجاعل دونهم ، والمعين دون رأى منهم .

وما قوله إني تارك إلا كما لو قال : امرني العليم عز وجل أن
انصب عليكم اماماً وخليفة من بعدي . لانه لا ينطق عن الهوى
او الحب لذوي القربى . بل لا ينطق إلا عن وحي يوحى اليه .
ويشهد لهذا الفساد من انه (ص) يقصد به ذا القول
نصب الخليفة من بعده ما ورد في بعض نصوص الحديث : إني
تارك فيكم خليفتين انظر مسند احمد (٥ : ١٨٢ و ١٨٩) وهل

بعد التصريح بلفظ الخلافة من نص .

ومن عرف مناسبات المآثرات مع قرائن الاحوال لا يجد فرقاً في فهم القصد بين التصريح بلفظ الخلافة او الاكتفاء عنها بلفظ الثقلين ، لأن دلالاته على الخلافة والامامة واضحة لمن يريد أن لا يكون بينه وبين اللفظ ومدلوله شيء من التكررات التقليدية ، والعقائد الاتباعية ، فان للارتكاز والعقيدة سيطرة على ظهور الدليل بل ونصه ، لأن المرء جهده يصرف اللفظ عما دل عليه الى ما يراه ويعتقده ولو رجعنا الى ما ترشدنا اليه الادلة دون ان تدخل في الدلالة الاغراض والاهواء لم تبعد الشقة بين اهل المذاهب والعقائد .

ولو قيل : إن الرسول (ص) يترك في كل غزوة يقودها بنفسه أميراً على المدينة . وينوه بخلاته عنه فلماذا لا نرى خلافة أولئك الامراء . وقد صرح (ص) بتلك الخلافة .

اقلنا : إن هذه الخلافة خلافة على أمر خاص . وبلد خاص . ايام حياته خاصة . وفي ايام معدودة . واين هذه من تلك الخلافة العامة بعد وفاته . وعلى الامة جمعاء . الى امد غير محدود . بل صرح (ص) في بعض نصوص الحديث انه

سوف يدعى فيحيب . أليس هذا إذن وقت التخليف ونصب
الرائد الراعي . والامام العام . الامام الذي لا غنى للأمة
عنه . القائم - لكفايته ومقدرته - بوظائف الرسول (ص)
وأعباء مسؤوليته : وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وما عليه
إذا لم تسمع الأمة قوله وتطع أمره . وإذا خالفوه فامسأوا
لأنفسهم . وحادوا عن الطريق الذي هداهم اليه ووجب عليهم
السلوك فيه . وليس عليه ولا على الخلف بعده غضاضة إذا عمد
الناس على خلافهما وتركوا الائتمام بهما .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله لا يترك المدينة أياما
قليلة بغير خيفة وأمير . فكيف يترك الأمة كلها عمر الدنيا بغير
قائد ورائد . وامام وخليفة . يجمعهم على الهدى والرشاد .
ويدهم على الخير والصلاح . ويمرفهم ما جهلوه من معاني
التنزيل واحكام الشريعة ، وبصرفهم عن مهاوي الجهل والفساد
مع حاجتهم الى تلك الدلالة وذلك التاميم والارشاد . والى هذا
الصرف والصد .

الثقلين

قال في القاموس في (ثقل) : والثقل محرّكة متاع
السافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون . ومنه الحديث إني
تارك فيكم اثنين كتاب الله وعترتي .

وكفى ما في القاموس عما يذكره سواهم من ارباب المعاجم
الافغوية . لأن القصد من الاستشهاد به ان نعرف المعنى المطابق
للتقل عند اهل اللسان ، فمن هنا تعرف ان التعبير عن الخلف
بعده بالثقل تلويح بل تصريح عند ارباب المحاوراة والبيان
بعظم شأن الخلف لقياسه . وهذا وحده يغني الناس في وجوب
العناية بذلك الخلف فيما يليق بشأنه . فالعناية بالكتاب الاخذ
بتماليمه وتطبيق احكامه . والعمل بنصائحه وعظاته . الى غير ذلك
مما فيه سعادة البشر وصلاحهم والعناية بالعترة اعظامها واكرامها
والامثال لاوامرها والارتداع بزواجرها والعمل بما تسديه
من ارشاد وهدى الى ما سوى هذا مما فيه حياة الامة

دنيا وأخرى ، لأن جميع ما لديهم اخذوه عن الفرقان وعن
الصادق به .

وايس الاهتمام في جودة خط الكتاب والتجويد به بعد
عند ارباب البصائر من العناية به ، من دون اخذ بنصائحهم
وارشاداته ، وعمل باوامره ونواهيه ، كما ان احترام العترة وحباءها
وان كان من العناية إلا انه لا يتم ذلك ما لم يتمسك بهداها التزاماً
بما ترشد اليه وتدعوه من اوامر الكتاب والسنة ، لان اللائق
بالكتاب الذي نزل ناموساً للبشر ان يعملوا بتلك الأنظمة
والاحكام ، واللائق بالعترة التي جمعت الى العلم الهداية والصلاح
ان يستقي الناس من ينابيع معارفهم وعلومهم ، ويعملوا بنصائحهم
ويقتدوا بهديهم ، فانهم لا يوجهون الناس الا الى السعادة في
الحياتين وهذا اللفظ وحده يرشدنا الى ما اشرنا اليه من شأن
الثقل وان لم ننظره مقترناً بآول الحديث وآخره ، فكيف اذا
نظرناه جملة واحدة مشفوعاً بصدوره وبمعجزه ، ومقروناً بالآيات
والروايات اللواتي حثت على الاعتصام بهذا الخلف ، وما كان
ذلك الحث والترغيب إلا لاصلاح البشر انفسهم ، فان بالتمسك
به الهدى وعدم الضلال عمر الدنيا ، كما يفصح به الحديث نفسه

ويرشد اليه غيره ، وجاء في بعض نصوص هذا الحديث قوله :
 ولا تلهوهم فانهم اعلم منكم ، كما يرويه في الينابيع ص ٢٩ عن
 المناقب ، ومن هنا تعلم ان التمسك بالعترة انما هو لحاجة الناس
 الى علم العترة واما العترة فهي في غنى عن علم الناس لانها اعلم
 منهم ، فامر المصلح الأكبر خاتم الرسل (ص) بالتمسك
 بالثقلين ما كان لامناية بشأن الكتاب والعترة لانهما كتاب
 وعترة فحسب ، بل لان بهما الهداية والرشد للأمة عمر الدنيا
 ما استمسكت بهما ، فكما كانت رسالته رجحاً لا مباد كانت استدامة
 الرحمة بوجود الثقلين ، وهذا كله من الطافه تعالى بعباده وهو
 اللطيف الرحيم .

كتاب الله

لامناص من ان يكون الكتاب خليفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وان لم ينص الرسول على خلافة عنه ، لان فيه الحكم والاحكام ، والنصائح والاخلاق ، والتعليم والارشاد ، واخبار الاوائل وعبر الماضين ، الى ما سوى ذلك مما فيه حياة البشر لو تبصروا فيه وعملوا به ، وأي شئ من هذا تستغني الامة عنه ، بل فيه كلما يحتاج اليه الناس ، كما يقول سبحانه : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (١) وكما قول تعالى خطا بالسيد رسله (ص) : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (٢) .

غير ان مدار كنا قاصرة عن الوصول الى هذه الكلية الواسعة ، كما ان الكتاب لا يكون في مبالغة ولا غلو ولا كذب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بد اذن من ان يكون له قوم يعرفون مدى ما فيه ، وينهون ما خواه ، ودلتنا الكتاب

(١) الاعراف : ٣٨ . (٢) النحل : ٩١ .

نفسه على وجود العلماء بتأويله حسبما نزل وصدع به الرسول
الأكرم؛ وذلك حيث يقول سبحانه خطاباً لرسوله الأمين (ص) :
« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب
وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتمعون ما تشابه منه
ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون
في العلم » (١) .

فهذه الآية المباركة اعلتنا بصريح منطوقها ان في القرآن آيات
محكمة وأخر متشابهة ؛ وان العالمين بتأويله بعد الله جل ذكره
الفاصلين بين محكمه ومتشابهه قوم راسخ علمهم ، لا يعتبر به نزول
وشك ، ولا شبهة ورب .

واما الناس الذين اخذوا علمهم عن الناس فلا يكون
علمهم ثابت الاساس رفيع البناء ، بل لابد ان يكون قائماً على
شفا جرف هار ، وما قرن سبحانه علم التأويل لأوثاك العلماء
بعلمه تعالى إلا لأن علمهم مستند من ينبوع فيضه ،

وهل ياترى يستودع الله تعالى جواهر علمه ومفاتيح
غيبه عند من لا يقوى على احتمال تلك الوديعة ، ولا يعرف زانها

(١) آل عمران : ٥٥ .

من الكرامة ؛ أو يودعها عند من لا يكون أميناً عليها ، ولا يقدر
على الاحتفاظ بها ، فيلقبها الى كل من يلقاه ، ويقضي بها الى
كل من يسأله ، وان لم يكن وعاءه صالحاً لاستيداع ذلك الجوهر
النفيس ، أو يستودعها عند من يتبع هواه لاهداه ، ويقتني ميوله
لا نزوله ، أو يزبغ ويخطئ ويهوي وينسى ، كلا ، لا يكون ذلك
شأن من يريد العلامة تعالى وعاءاً لاستيداع غيبه الممكنون وعلمه
التمين ، ويريد اداة لاصلاح العباد بل لابد ان يكون قوياً على
احتمال عبء تلك الودعة ، أميناً عليها ، يعرف عند من يستودعها
والى من يقضي بها ، لا يعتريه الريب والشك والسهو والنسيان
والزبغ والخطأ في ذلك العلم المستودع ، وإلا لاختلط الحابل
بالنابل وصار ما ينسب الى الله سبحانه مشوباً من حق وباطل
وصواب وخطأ ، واذا علم الناس انه خزانة علم الله جل وعز
وأدلى الى الناس بالخطأ والزبغ والضلال سهواً أو غفلة أو نسياناً
فقد اوقع الامة بالفساد وقد أراد الله جل اسمه ابداعه العلم لاصلاح
واخراج الناس من غياهب الضلال وهاوي الجهل والشقاء .
فمن هذه الآية السريّة علمنا ان الكتاب العزيز علمه
بالتأويل لا يحجلون ، ومعصومين لا يخطئون ولا يهون ولا ينسون

كما ان الآية الكريمة دللتنا على فتنه اخرى زعمت ان لها
 علماً بالتأويل ، وهم ادباب الزيف والضللال ، الذين اتبعوا ما تشابه
 من الكتاب ، ابتغاء فتنه الناس وصرفهم عن الهدى والحق ،
 وابتغاء تأويله حسبما يريدون دون اخذ عن جاء به ونزل عليه ،
 وهذا التنبيه منه جل لطفه تحذيراً لنا من ان يفتننا المبطلون ،
 ويحيد بنا عن الحق الزائفون ، وما حذرنا عن اولئك الفاتنين
 إلا ونصب لنا ادلة على تأويل الكتاب يفصلون بين محكمه
 ومتشابهه ، ويهدون الناس الى المحكم ويريدون بهم
 الهداية والسعادة .

قد يقال إن قوله تعالى - والراسخون في العلم - ابتداء
 جملة والخبر قوله بعد هذا - يقولون آمنا به - فلا يكون عطفاً على
 لفظ الجلالة ، وعليه فيختص علم التأويل به جل علمه ، ولا يشاركه
 فيه أحد من البشر .

غير أنني أقول : ان اجتهدنا ان نصرف الآية عما دلت
 عليه من وجود العلماء بالتأويل من عباده فلا نستطيع ان ندافع
 ما يلزم به العقل من وجوب الوجود لمثل هؤلاء العلماء ، وذلك
 لان هذه الآية صرحت بان الكتاب مشتمل على المحكم والمتشابه

وان في الناس زائغين يريدون اتباع المشابه للاضلال والفتنة
ويريدون التأويل حسب ايهوون ، فاذا لم يكن هناك علماء بالتأويل
يعرفون المحكم منه ، يصرفون الناس اليه ابتغاء هدايتهم واخراجهم
من الضلالة فلا يبقى اذن غير ذوي الضلالة في الناس ، فابن
حجته البالغة ، وابن هدايته للنجدين ، وابن من يدل الناس على
ضلالة اولئك الزائغة قلوبهم ، وابن من يصرفهم عن اتباع
اولئك الضالين .

قلاية لا صارف لما عما اشارت اليه من ان الراسخين في العلم
هم من علماء التأويل على ان الكتاب نفسه في غير هذه الآيه
اخبرنا عن وجود العلماء بالكتاب كما في قوله : ونزلنا عليك الكتاب
تبيانا لكل شيء . فالرسول (ص) خير بجميع ما نزل عليه وصدع به .
وكما في قوله تعالى : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً
إلا من ارتضى من رسول ، واذا لم يكن سيد الرسل وخاتمهم
مرتضى لله تعالى في اظهاره على غيبه فمن المرتضى سواء ، وان
الاظهار على غيبه أعلى شأنًا وأوسع دائرة من اظهاره على علم
الكتاب وحده .

وكما في قوله تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا

بما شاء . وما عاقب الاحاطة على المشيئة إلا وقد شاء . الى غير
هذه من آي الكتاب .

نعم انما يكون ذلك الظهور على الغيب والاحاطة بالعلم منحة منه
جل لطفه ، فلا يكون ذلك في الانبياء والأوصياء ذنبا وهذا
بمخلاف علمه تقدّس علمه . قال علمه سبحانه عين ذاته ، فالفرق
بين العلمين ظاهر فاذا كان رسولنا الامين (ص) ظهيرا على
الغيب ، علما بما نزل عليه . محيطا بشيء من علمه ، فهل انتهى
اليه ذلك ولم يستودعه احداً من امته ، وبقي ذلك العلم والغيب
مكنونا ، وعلم الكتاب مخزوناً لا يعلمها بشر غيره ، ويبقى اهل
الزيف والضلال على اضلالهم واغوائهم . فاذا كان في عهد الدليل
المرشد صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله منهم فئة موجودة .
فبالاخرى ان يكونوا من بعده اكثر نفراً وعدداً . وهل
يصح في العقل والدين ان يبقى ارباب الزيف والضلالة
رافعين أعلام الفوابة ولا هادي ولا مصلح . ولا عالم بالكتاب
ولا مرشد . يدلون الناس على الهدى والرشاد . ويرشدونهم
الى ضلالة أئمة الضلال فالخلف عن الرسول (ص) الحامل
للمه وهداه لا بد منه في الامة .

نعم ان الجدير بالناصح المصلح الاكبر سيد الرسل (ص)
ان يدل الامة على أولئك الأئمة أدلة الرشاد فانه أدري
العالم بمن يحمل علمه واعرف الناس بمن انتهى اليه الهدى
والدلالة ومن ثم قال : مشيراً اليهم :

وعترني اهل بيتي

فلا مندوحة اذن عن هذا الخليفة الثاني من الثقلين في النيابة عن صاحب الرسالة (ص) لأن للرسول صلوات الله عليه وعلى آله وظائف جمّة ينهض باعبائها ، فهو نبي مشرّع ، واداري مطبق ومنفذ ، وقاض يفصل الخصومات ، وسياسي يعقد المعاهدات ، وقائد محنك باسل ، ومعلم مرشد هاد ، الى غير ذلك مما يحتاج اليه في التبليغ والتعليم والحكم لأن المسؤولية عليه خاصة من كل ناحية .

هذا في ايام حياته ، واما بعد وفاته فلا غنى للناس عن ذلك الحاكم الاداري ، والعالم المرشد ، والقاضي الفاضل ، والقائد المحنك ، والسياسي الخبير ، وما عدا هذا مما لا بد منه في الزعيم الجامع للناس ، غير ان التشرّيع من صفات النبوة خاصة ، ولئن أخبر (ص) عن مماثلة علي عليه السلام له في

المنزلة الشاملة لجميع ما أشرنا إليه فقد استثنى النبوة ، ومن ثم لم يستثن شيئاً من العلم في قوله : أنا مدينة العلم وعلي بابها .
 فإذا كان الخليفة عن الرسول (ص) لا غنى عنه بتاتا فمن هو الجدير بالنيابة عنه -- أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدي الا ان يهدي -- لا ينبغي الرب في ان الهادي بنفسه ، العالم بذاته من غير تعليم من الناس ، الذي لا يخطئ ولا ينسى ولا يسهو ولا يغفل ، والذي انتهى اليه علم صاحب الرسالة وصفاته هو الحقيق بتلك النيابة ، والجدير بهاتيك الخلافة .

وما اختار الرسول الحكيم اهل بيته للخلافة عنه من قبل نفسه وانما كان بأمر من الله تعالى لعلمه سبحانه بانهم الذين يتقصدون بتلك الصفات ، ويقدرُونَ على النهوض بهاتيك الاعباء ، ومن ثم أشار (ص) الى ان الهداية بالتمسك بهم ، والضلال بالخلافة لهم ، ولو كانوا امثال الناس في هاتيك الخصال -- وانت تعلم حال الناس من الخطأ والصواب ، والنسيان والذكر ، والغفلة والالتفات ، والسهو والانتباه -- لما كانت لهم الخلافة دون الامة ، ولكان الايضاء اليهم بالامر

ترجيحاً بلا مرجح . وهو قبيح عند ارباب العقول ، فكيف
يفعله المرسلون .

على ان الكتاب الحكيم محتاج الى التأويل والمفسر لما
صرح به نفسه من اشتماله على المحكم والمتشابه ، وان ارباب
الزيغ يتبعون متشابهه دون محكمه ، ولولا ما يخفى على سواد
الناس من الفرق بين المحكم والمتشابه لما انتهز ارباب الضلالة
الفرصة لفتنة الناس باتباع المتشابه ، فاذا لم يكن هناك مؤولون
يكشفون للناس ما خفي عليهم من الفرق بين القمين لكان
لأولئك الزائعين في تأويلهم شبهة يرتطم بها الناس بعضهم
ببعض ويخفى على ضعفاء البصائر الجواب عنها ، على ان ذلك
التأويل الزائف ما زال متبعاً عند قوم حتى الساعة ، وذلك لانهم
تركوا في تأويل القرآن اهل التأويل الذين نص عليهم الرسول (ص)
ومن اين جاءت شبهة القول بالتجسيم ، وشبهة القول بالجبر ،
إلا من هاتيك الآيات المتشابهة ، وما كان تصریح اهل البيت
ببطلان هاتين الشبهتين واشباههما وهم الرجع في التأويل وما
كان حكم العقل بفسادهما ، وهو الحكم الفاصل في الخصامات
ينفع في اقناع اولئك القوم في العدول عن هاتين الشبهتين ،

وما ذاك إلا لأن لهم من متشابه الكتاب «فزعاً يرجعون اليه ،
وان اوضحه المحكم .

ولو لم ينص الكتاب الاقدس على احتياجه الى المؤولين
الراسخ عليهم لكان من صمته دلالة بيّنة على احتياجه الى
المفسر الناطق ، ولو كان في استغناء عن ذلك المؤول الناطق
لاجمع الناس على مدلوله ، واطبقت الامة على منطوقه ، ولم تصبح
في تأويله شيعاً ومذاهب ، وفرقا وطرائق ، ولما بلغت تلك
الفرق الى ما يزيد على السبعين ، وكل فرقة تزعم أن دليلها
الكتاب ، وهو الناطق بمحجتها ، والمصباح لهدايتها ، وتستشهد
على ما تزعم بآيات منه تؤولها حسبما ترغب وتهوى .

فاذا لم يكن لا لكتاب العزيز مرجع خاص في معرفة تنزيله
راسخ العلم في تأويله ، فمن يكون الفيصل بين هذه الفرق
المختلفة ، والحكم بين أوائلك الخصوم المتنازعة ، ليردها
الى الحق المحض ، ويوردها المنهل الصفو ، فانه لا يسوغ ان
يكون في الامة ذلك الاختلاف الجهم من دون مرجع منصوب لا يوضح
الحق ، وكيف يسوغ هذا والكتاب واحد والنبي واحد
والشريعة واحدة .

وليس بقاء هاتيك التأويلات الباطلة ، والفرق المتخالفة
حتى اليوم وهنا في أولئك المؤولين الراسخ عليهم ، وطعننا
فيهم بالنقصير أو القصور عن اراحة الشبه الفاسدة ، بل ان
الناس انفسهم عرضوا عن أولئك العلماء الهداة وأبوا ان
يسمعوا لهم حجة ، ويصفوا منهم الى قول ، وما ذنب أولئك
الادلاء اذا سلك الناس سبيلا غير سبيلهم ، مع دلالة المصلح
الاكبر عليهم ، فما كان تفرق الناس عنهم ، واعتمادهم
على آرائهم وأهوائهم ، وان أرقعتهم في مهاوي العطب ،
وصيرتهم طرائق قديراً ، إلا بما اختاروه لانفسهم ، وما هم
بضائرين إلا انفسهم .

ولو اهل الرسول (ص) الاشارة والارشاد الى صاحب
التأويل ، اساغ أن يزعم كل ناعق بضلالة انه الراسخ العلم
وصاحب التأويل ، ولقد زعم بعضهم انه ممن انتهى اليه
التأويل فوق ووقع الناس في الهالك ، لاستقلاله بالتأويل دون
اهل التأويل ، ولو كان أولئك المؤولون جميعاً من اهل لما
اختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي بكشف عن جهلهم بالحقيقة
وبمدهم عن الصواب ، ومع تبين هذه الحال لهم استقاموا على

ذلك الاختلاف والمخالفة ، واستمروا على مجانبة ذلك العالم
بالتأويل .

قال الرسول (ص) ارشاداً الى الخليفة الثاني :
(وعترتي اهل بيتي) فابان صلوات الله عليه وعلى آله من هو
المعني بالعترة بقوله : اهل بيتي ، فاضنانا بفضل بيانه عن
الخوض في المقصود من العترة .

غير ان الامر كله في انه من المقصود باهل البيت ،
لان الناس على اختلاف في ذلك ، فبين من ذهب الى ان اهل
البيت نساؤه والهاشميون عامة ، وبين من ذهب الى انهم
بنو هاشم خاصة دون النساء ، وبين من ذهب الى انهم رهط
خاص من بني هاشم ، وهم الذين جلاهم بكسائه ، وقال اللهم
هولاء اهل بيتي ، وذلك عندما نزل عليه قوله تعالى انما يريد
الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم تطهيرا وهم علي
وقاطمة وابناهما عليهم السلام ، وهذا الخلاف جار في كل آية
ورواية جاء فيها ذكر لاهل البيت عليهم السلام ؛ سوى انه
يمكن ان يقال بان الزهراء عليها السلام غير مقصودة من
اهل البيت ههنا ، وذلك فيما اذا فهمنا من الحديث النص على

الخلافة والامامة .

ولعلنا نهتدي الى المعنى من اهل البيت بعينه ، ونعرفه
بشخصه دون ما تعمق في الاستنباط ، أو تكلف في سلوك
السبيل اليه ، فنقول : إن الرسول (ص) اراد بهذا الحديث
ان ينصب علماً لهداية الامة وارشادها ، وعالماً يدها على تأويل
الكتاب حسب نزوله ، واماماً يجمعها على الخير والهدى ،
ويصدها عن الشر والضلال ، وابن نساؤه وعامة الهاشميين
من هذه المملكات القدسية التي لا تكون إلا للانبياء واوصيائهم
عليهم السلام ، فانا نرى النساء وبني هاشم على غير ما يراد من هذه
المنزلة العظمى ؛ فلا بد ان يريد من اهل البيت رهطاً لهم الكفاية
والقدرة على النهوض بتلك الاعباء الباهظة ، ولا بد ان
يكون ذلك الرهط معلوما لديه ولدى الناس ، ولو كان مجهولاً
للامة لم تنفع الاشارة الاجمالية اليه ، ولم تخرج الامة بها من
الضلالة . لان الامة تختلف عندئذ في تعيين أولئك الرهط .
لا سيما اذا ادعاها خلق كثير منهم . وزعم كل واحد انه الخلف
دون سواه . وقد اختلف الناس وأخذوا بمنة ويسرة مع
توليح الرسول (ص) واتصرحه بذلك الخلف . فكيف

للم فعل ، نعم لولم يفعل لقامت الحجة من الناس عليه ، ولكنه حين فعل قامت الحجة منه عليهم .

ولو كانت اشارة الرسول (ص) الى الخلف من بعده اشارة اجمالية من دون تعيين لنفر خاص لما كان ثمة دافع عن التنافس ، أو رادع عن دعوى العلم بالكتاب ، ومن يكون الحكم عند ذلك بين الخصوم في دعوى العلم والخلافة ، وما المرغم لأولئك الخصوم على الخضوع لشخص بعينه من دون نص وتعيين من صاحب الرسالة (ص) فان الناس جاهدوا بالجد لأولئك المنصوص عليهم مع تظافر النصوص ، وتصديق آثارهم لها ، فكيف لو اهل الرسول أو اهل ، أو لم يكن أثر بشفع للخبر ، إن الناس لا بد ان تعرف في عهد الرسول (ص) من هم اهل البيت ، ولا بد أن يكون الحديث نفسه في عهد الرسول وهذا العهد دالا عليهم دلالة واضحة ، ومرشداً اليهم ارشاداً لا لبس فيه ولا تعمية ، وإلا لما صلح هذا الحديث لأن يكون من المصلح الا كبر حجة على الأمة ، يقطع منهم العذر والحجة .

إن الحديث الشريف نفسه حين عبر عن العترة بالثقل وقرنه بالكتاب دلنا على ان هذا الخليفة الثاني رفيع الشأن ،

ثقل الميزان ، عليم بما في القرآن ، راسخ العلم لا يعتري علمه
شك ولا ارتياب ، معصوم من الخطايا والذنوب ، منزّه عن
النقائص والعيوب ، به الهدى من الضلال ، والانتشال من
الجهل ، شأن عديله وقرينه الكتاب ، كما عرفته وستعرفه
ان شاء الله تعالى ، وابن من هذه الصفات نساؤه وعامة
الهاشميين .

ولو كان هذا الخليفة الثاني وعديل القرآن لا يتصف
بجميع تلك الصفات ، أو يتصف بها طوراً وطوراً ، لما تركه
الرسول خليفة عنه هادياً من الضلالة وقريناً للكتاب الحاوي
لهاتيك الخصال .

أو كان غير قدير على تأدية وظائف الرسول التي لا بد
منها للخليفة ، والتي لا غنى للناس عنها لما كانت الهداية به دائماً
والخروج به من الضلالة ابداً ، كما وصفه بذلك الرسول الصادق
الامين ، وكما هو شأن عديله الكتاب .

ومن ياترى من بيت الرسالة يتصف بتلك الملائكة القدسية
التي لا تكون إلا في افذاذ من البشر اختارهم الخير تعالى للرسالة
أو الوصاية ، أرى يصلح لها غير المرتضى وولديه عليهم السلام

ان كانت تلك الصفات مجتمعة في احد فلا تعدو الوصي
والسبطين وان كانت العصمة بعد الرسول موجودة في بشر فلا تتخطى
عليها والحسين ، ولئن فأت هذه السجاياء التي لا بد منها في
الوجود الوصي وابنيه فمن ياترى يكن لها من اهل البيت ، ومن
هم اعلم منهم وادري ، وارشد واهدى ، بل من هو على شاكلتهم
يجاريهم في الفضائل ، ويباريهم في العلوم والمعارف ، ويصلح
للعصمة لو كانت ثمة عصمة .

ان فأت هذه الصفات ابا الحسين ، والحسين فقد جاز على
المرشد الاكبر (ص) ان يرشد الى معدوم الوجود ، أو يشير
الى مستحيله ، فيكلف الناس معرفة ما لا يسعون ، ويطلب منهم
ما لا يجدون .

فاهل البيت اذن في عهد صاحب الرسالة (ص) الذين
يقصدهم هذا الحديث الشريف هم علي والسبطان فحسب ، حصراً
وجدانياً ، وحكماً عقلياً ؛ ايس فيه ارتياب . ولادونه حجاب .
وهذا الحصر والحكم برغمان المرء على الاعتراف به هذه الحقيقة
في كل عهد وزمن . فكما فهم الناس في عهد خاتم الانبياء (ص)
ان المراد من اهل البيت المرتضى ونجلاه نفهم هذا منه اليوم ،

مادام الهدف الحق . والقصد معرفة الثقل الثاني .
ولا احسب ان هذا المفهوم من الحديث يخفى على احد
بعد الروية والبصيرة ، والتجربة عن المرتكزات والتقليد
في العقيدة .

ولو كان في بني هاشم من يبلغ شأواً وأمرانين وولديه
في الفضائل والمعارف والعلوم ، اظهر امره ، وبان خبره ،
وارشدنا اليه الاخبار والآثار .

هذا ما استفدناه من الحديث نفسه . ولو اردنا ان نؤيد
مدلوله بالآيات والروايات لكان لنا منهما ما نتمتع . ولكننا اردنا
ان نكون نحن والحديث من دون ان نستعرض سواه في هذا المقاد .



ما انه تمسكنتم برحماتها نضلوا بعري ابدًا

كلمة ما اسلمس بيانها ، واوضح مفادها ، اذ هي في تركيبها تعقيد ، ولا في مدلولها غموض .

دللتنا على ان الدليل بعد الرسول صلوات الله عليه وعلى آله الى الهدى والخروج من دياجر الضلالة كما كان في عهده . هو التمسك بالثقلين معا .

وهذا الارشاد من رسول الرحمة والرافة يعم الامة جميعاً ، ويافت صحابته الى ان الاستمرار على الهداية لا يكفي فيه ما استقوه من ينبوعه دون ان يتمسكوا بعده بهذين الخليفتين وبنيه الاجيال الآتية من المسلمة الى ان الاسلام لا يكون منازاً للهدى إلا بالتمسك بالثقلين ، فانهما رائد الحق ، وسلم النجاة واي امرى لا يحتاج الى رائد في الوصول الى الحق والصدود عن الباطل ، ومن يؤمنه لو سلك السبيل وحده من غير دليل ورائد - والطريق شاع - ان يقع في فلات حرد حيث

لا ماء ولا كلاً ، وهناك العطب ، واي بصير يستغني عن
السم في الرقي الى معارج الحق الرفيعة ، ومن يؤمنه - لو ارتقى
بدونه - ان تكون المعارج ماثوية فلا يجد مستقلاً ليديه وموطئاً
لرجليه فتزل به القدم ، قال ابن - ياترى - المهوى والمنقلب .

وهذه الكلمة كما ارشدتنا بدلائلها الى ان الهدى بعد الرسول (ص)
بجلفيته ، ارشدتنا الى استمرار ذلك الهدى ما دام انسان ،
وما دام كتاب وعرة .

ونستفيد التأييد الدائم لعدم الضلالة بهما من - لن -
الدالة على النفي اذؤبد ، ومن التصريح بالتأييد بقوله - ابدأ -
فالهدى الابدى الذي لا يحول ولا يزول هو بالتمسك به - ذين
الثقلين ، وبعد ان دلنا نبي الرحمة والهدى على تلك الهداية
كان لزاماً علي أن اتبع دلالاته ، فلا احيد عن الثقلين قيد أملة
فأضل واهلك ، ولست مسؤولاً بعد هذا التعمين منه (ص)
عن غيرهما من الكتب والناس . ما لم تكن قد اخذت عنهما
متفقين ، واستندت اليهما مجتمعين ، فانه ادري بمن يصلح للدلالة
بعده ، ولا يهمني بعد هذه الوصية منه ما قيل ومن قال . وهذا
الموقف هو الجدير بكل مسلم ان يقفه مع الثقلين بعد ذلك النصيح

والارشاد من رسول الاصلاح (ص) .

غير ان المهم ان نعرف ما هو التمسك بالثقلين ، فان التمسك هو الغاية التي ينشدها الرسول (ص) من هذا الحديث كماله .
ان حقيقة التمسك هي الاعتصام ، وليس الغرض منه هنا القبض باليد ، بل التمسك بانشيء انما هو حسب ما يليق به ويتفق وشأنه ، ولما كان الكتاب - كما علمت - مصدر الشريعة المحمدية ، وقاعدة النظم والاحكام ، وينبوع الفضائل والاخلاق ، ومفتاح العبر والعظات . وكانت العبرة الكتاب الناطق ، الكاشف عن اسرار الكتاب الصامت ، والدليل على عظمة الاله الفاطر والمرشد الى واجب العبودية ازاء تلك العظمة ، والموئل في حياتنا الدينية والسياسية . كان التمسك بالثقلين الاخذ بما ارشدا اليه ، ودلا عليه ، واتباع ما امر به ونها عنه ، فان خالف المرء سيرهما اجتيازاً ، أو تخلف عنهما نكوصاً ، اعتصاماً برأيه أو اتباعاً لغيره . لم يكن من المتمسكين بل كان من المنحرفين الزائغين .

هل هناك ثقل ثالث

وهناك امر لا بد لنا من النظر فيه والبحث عنه . بحث مستهدف للحق ، متطلب للحقيقة ، مصباحه الذي يسير على ضوئه - الدليل - وبه تميز غياهب الشبه والشكوك ، وأي نبراس يجلو لنا دياجر الاوهام والهواجس اضوأ منه ، وهو انه هل هناك ثقل ثالث يلزمنا صحيح البرهان بالتمسك به والقبض عليه ، بحيث يكون ذلك الثقل على مثال الكتاب والعرة في الخلافة والاعتصام والعلم ، فمن تمسك به اتخذ الى الهدى سبيلا ، وإلى الفرار عن الضلال والردى طريقا .

زعم فئة من المسلمين ان لدينا ثقلا ثالثا يجب التمسك به والاتباع له . ألا وهو - الاصحاب - ورووا في ذلك حديثا عن نبينا المرشد الاكبر (ص) زاعمين انه قال : اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم .

ولا بد لنا من تمحيص هذا الحديث لنكدر على بصيرة

من أمره ومن موقفنا إزاء الاصحاب ، فانه ان صح سنده
وتمت دلالة أوقعنا في أرق ضيق لا نجد ثغرة فيها المخرج
من لوازمه ، ولعلنا نتهدي الى التوفيق بينه وبين حديث الثقلين .
لا أريد أن أتحدث اليك عن سند هذا الحديث وحاله فان
الحديث عنه ذوشجون ، وانما أبحث عن الدلالة فان بها غنى
وقناعة ، وبضطرني الحال الى ان اشير الى احوال بعض
الاصحاب ، وانه هل لنا سبيل الى ان نجعلهم قدوة كالثقلين .
ان كلمة الاصحاب اطلقوها على من رأى النبي صلى الله
عليه وآله وسلم وسمع حديثه ، سواء أكان مهاجراً أو انصارياً ،
وانت على خبر بان الرسول (ص) في بدء الاسلام اراد أن
يبث روح الاسلام في الناس ، وينشر تعاليمه الحية ، والناس
لا تقبلها ولا تقبل عليها اذا جاءتهم دفعة واحدة ، فان الحواجز
دونها جمة ، فمن حسد الى بغضاء الى عداء الى جهل الى عصبية
لدين الآباء الى ما شاكل هذه ؛ وانت ترى ان في البعض من
هذه حوائل دون الرضوخ للحق وان عرفته النفس وايقنت به ،
ومن ثم كان تبليغه للاحكام والتعاليم نجوماً شأن القرآن
ونزوله ، لئلا تنفر الناس من هجومها عليهم مرة واحدة ، ويروها

عَبْدًا ثَقِيلًا لَا يُطَاقُ حَمْلُهُ ، وَتِلْكَ سِيَاسَةُ إِلْهِيَّةٍ كَانَتْ أَحَدَ الْعَوَامِلِ
لِنَجَاحِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، جَرَى فِيهَا الرُّسُولُ عَلَى سُنَّةِ التَّدْرِجِ
فِي النِّظَامِ الْكُونِيِّ وَسُنَّةِ التَّطَوُّرِ فِي الْبَشَرِ وَلَا غَرَابَةَ فِذَا شَأْنُ
اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ .

وَكَانَ مِنْ سِيَاسَتِهِ الرَّشِيدَةِ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ
النَّاسِ الْإِسْلَامَ ظَاهِرًا وَأَنْ يُطْنُوا الْكُفْرَ ، فَإِنْ طُرِدَ أُمُشَالُ
هَؤُلَاءِ عَنْ حَضِيرَتِهِ تَكَثَّرَ لَاعِدَائِهِ وَتَقَلَّلَ مِنْ أَعْوَانِهِ ، عَلَى أَنْ
الْمَرْجُو مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَوْ بَعْدَ
حِينٍ ، كَمَا تَظَاهَرُوا بِهِ وَسَارُوا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ سِرَائِرِ
بَعْضِهِمُ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ بِقَوْلِهِ : وَمِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ،
فَوُجُودُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُطْنُونَ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ فِي
أَصْحَابِ النَّبِيِّ (ص) لَا أَرْتِيَابَ فِيهِ .

وَمَا زَالَتْ مِنْهُمْ فِتْنَةٌ مُنْذُ سِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى بَعْدَ عَهْدِ
الرُّسُولِ (ص) وَقَدْ خَفِيتْ حَالُهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي
أَيَّامِهِمْ وَأَيَّامِهِ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَهْدِ
بِقُرُونٍ ، وَإِذَا عَلِمَ أَمْرُهُمْ مِثْلُ سُلْمَانَ وَحَذِيفَةَ وَعِمَارَ وَأَضْرَابِهِمْ
فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ لَدَيْهِمْ مَعْرِفَةُ سِرَائِرِهِمْ وَمَا انْطَوَتْ

عليه ضمايرهم .

فإذا كان في المسلمين ذلك اليوم من ابطال الكفر فكيف يقتدي بكل فرد منهم دون ان نشق بايمانه ، ونعرف صحة اسلامه ، وما تنفعه تلك الظاهرة الا في ادخاله في رتبة الاسلام وعنده من المسلمين في الاحكام .

إن المنافق كافر وهو يود ان يرجع الناس الى الكفر ، ويسمى له جهده لوامكنته الفرص ، ومن الذي دحرج للرسول (ص) الدباب ليلة العقبة ، ومن الذي دعاه الى الصلاة في مسجدهم ليقتلوه ، ومن الذي قال : ايمجرحن الاعز منها الاذل ، الى غير هذا من سعي المنافقين وكيدهم للاسلام ، هذا والنبي حي والوحي يأتيه ، فكيف حالهم مع الاسلام من بعده . أصبح المسلم ان يقتدي بمثل هؤلاء وبمجاهداتهم في الهداية وكيف يستضاء بالمنافق وهو ظلام حالك لا نجم ثاقب . وزد على هذا ان كثيرا من الصحابة كذبوا على الرسول (ص) وزعموا اليه احاديث وافوا لم ينس منها بيت شفة . واعمالا كان بريث منها ، وقد اخبر الرسول (ص) نفسه انه سوف يكثر عليه الكذابون ، واوعدهم بتبره مقاعد من النار ،

وهل يأمرنا الرسول (ص) وهو الناصح الأمين ان تتبع
الكذبة الخونة اهل النار ، وهل سبق في شريعة سماوية ان
أتمتها الهداة كانوا من اهل الضلال والنار والكذب على الله
وعلى صاحب الشريعة ، واحسبك تراه مستحيلا عقلا ووجدانا ،
ولا ادري كيف تستنكر من الشر اثم السالفة ما ترتضيه لشريعتك
الغراء وهي افضلها نبيا وامة .

وهذا شأن بحجم القلم عن التبسط فيه ، وهو ما وقع
من الخلاف بين الاصحاب والنبى (ص) بعد لم يدرج في
اكفانه ، والسقيفة والخلاف في الخلافة أول حدث جال في
الاسلام وبين الاصحاب ، بايع فئة من الصحابة ابا بكر
وانكش آخرون . فبمن الاقتداء من هؤلاء . وما وجه تقديم
بعضهم على بعض في القدوة .

ودع عنك حادث السقيفة العظيم ومخالفة زمرة من
الاصحاب لابي بكر وجماعته . وبلوغ سبيل الخلاف بين
الفئتين الزبي . واستمراره الى اليوم . وانظر في الحوادث بعد
ذلك اليوم . واهما حادثة الشورى واختلاف الناس في الخليفة
واستسلام بعضهم قهراً لمبايعة عثمان . وما انقضت برهة طويلة

من أيامه حتى انكروا الكثير من اعماله . فوجدوها فرصة للتأليب عليه و اظهار ما ابطنوه من السخط على بيعته . وفي ظليمة المؤلّين والمتآمرين عليه عائشة وصاحبها طلحة والزبير حتى ان ناساً من الصحابة نسب اليهم مباشرة قتله بعد ان اجتمعا على خلمه فقل لي بمن تقتدي فتهتدي من هاتين الفئتين المخالفتين . والحزبين المتحاربين ، أبالفا - اتل ام بالمقتول ، وباللاعن أم بالملعون ، أم بكليهما ، وهل يمكن الاقتداء بهما معاً وهما على حرب ، أم نفحص عن فئة ثالثة قد اعتزلت الفريقين لنجعلها القدوة بعد ان نعرض عن دينك الفئتين ، وهل في ذلك اليوم حزب منقاد ، ام ماذا نصنع .. ؟

ولا تنسى الايام والتاريخ أمر عثمان ، وما كان من شأن حصاره و قتله ، فقد كفره الاصحاب وقتلوه بعد خلمه . وقد كان بزعم الكثير منهم انه اماهم قبل هذا اليوم ، فبأي اليومين تقتدي به ، وعلى أي الرأيين منهم تعمل .

واليك . منهم ما كان مع امير المؤمنين المرتضى فقد اجمع الناس على بيعته ثم نكث الزبير وطلحة واخرجا معها عائشة الى البصرة فكانت حادثة الجمل وانهرق تلك الدماء الكثيرة من المسلمين ،

فمن المسؤول عن هاتيك الدماء المسفوقة ، ومن الامام المقتدى به
من ذنك العسكريين ، ولا محالة ان احد الفريقين عات
ظالم ، وفي عتقه ذاك الحدث الكبير والدماء المرافقة ، وهل
يجوز ان يكون الظالم اماماً تقتدي به ، والله تعالى يقول :
لا ينال عهدي الظالمين ، وهل تكون هداية بمن اعتدى فأضل
الناس وارق الدماء طلباً للرياسة والزعامة ، من دون ان
يفعل ذلك عن شبهة أو دفاعاً عن دين أو حرمة أو حريم .

والخطب الا فضع ما كان من معاوية وابن العاص وحثالة
من الناس نسبوا انفسهم الى الصحبة فحاضوا بحوراً من الدماء
يوم صفين ، افقتدي بامير المؤمنين أم باولئك القاسطين وهل
يصح لنا اذا كان كل صحابي قدرة ان نحارب المرتضى اقتداءً
بمعاوية . ونحن فوق ذلك مهتدون ومعدون عند الله تعالى
لان قدوتنا من الاصحاب .

ولا تنس قارعة الطاف الموقعة ، فقد كان في جيش
ابن زياد سمرة بن جندب وقد اعتبره القوم من الصحابة ،
افيحوز لنا ان نحارب الحسين ومن بحمالة من الصحابة اقتداءً
بسمرة ، ومن الذي اخرج من عموم الحديث سمرة ومعاوية

وامثالهما ، وطائفة والزبير واشياعهما ، ومروان والوليد بن
عقبة واشباههما ، ان كان الحديث صحيحاً ، يأمر باتباع كل
من له صحبة ، وما الفارق بين الهادي والضال منهم لندفع الضال
ونزكن الى الهاد وكل واحد منهم له فئة يركنون اليه ، ويصوبون
أعماله وآراءه .

انك لو سبرت سيرة الاصحاب بعد الرسول صلى الله
عليه وآله الى يوم انقراضهم لما وجدت عصراً لم تتخاف
فيه الصحابة ، بل ولم تتحارب ويكفر بعضهم بعضاً ، ودونك
اخبارهم فاسبرها ، وآثارهم فانظرها .

وما كان الخلاف بينهم في الزعامة والامامة مخيب ،
بل اختلفوا في الرواية والفتيا عنه (ص) وفي السيرة والاخلاق
وفي طرق الهداية والارشاد ، وفيما سوى هذا ، وهاتيك
احوالهم تقرئك اياها كتب السيرة والترجمة والتاريخ .

ولو ضعف ايماننا بكتابك الكتب لكفتنا عن سبر احوالهم
آية الانقلاب ، واحاديث الذود عن الحوض ، واحاديث
الافتراق ، وما مائلها ، ومن كانت تلك حاله كيف يصلح
لهدى والرشد .

هذا اذا نظرنا الى الاصحاب وسيرتهم فحسب ، واما
 لو نظرنا الى موافقهم مع اهل البيت . الذين اذهب الله عنهم
 الرجس وامرنا بمودتهم والتمسك بهم . لايقنا بان القوم قد
 انتمهم الاضغان والاحقاد ما لأهل البيت من حق وما لهم
 على الامة من فرض . فابن آية التطهير وابن آية المودة وابن
 سورة هل أتى . وابن حديث السفينة . وابن حديث باب حطة
 وابن حديث الثقلين . وابن حديث حربهم حربي وحربي
 حرب الله ، ولهم سلمي وسلمي سلم الله وابن . وابن من ذلك العداء
 الذي نصبوه لهم ، والحرب التي شنوها عليهم فكان هاتيك
 الآيات ما نزلت وهذه الاحاديث ما وردت إلا لمقاومة اهل
 البيت وحربهم والخلاف عليهم .

وما اصبح مذهب اهل البيت مستطيلا إلا بنفسه يخالفه
 الكثير من مذاهب الصحابة وآرائهم وجرى الخلف على
 سيرة أولئك السلف فالناس الذين امرهم الرسول بمتابعة الثقلين
 ساروا حتى الساعة على المخالفة والمعارضة .

بلى كان زمرة من الاصحاب لا يشك بايمانهم وهداهم
 واجتهادهم في النصيح والارشاد امثال سلمان وابي ذر والمقداد

وعمار وابن مسعود وحذيفة وخزيمة وجابر وابي أبوب وكثير
سوام ساروا على خطتهم ، ولا يرتاب ذو مسكة بان الاقتداء
بمثل هؤلاء رشد واهتداء ، ولكن هؤلاء لم يقفوا مع أهل البيت
موقف حرب وعداء ، ولا موقف انزال وحياد ، وإنما وقفوا
معهم موقف اتباع وتمسك ، فهم تبع للثقلين وانصار للخليفين ، فلا يكون
الاقتداء بهم انحيازاً الى ثقل ثالث غير الكتاب والعتره .

واين هذا من الاقتداء بجميع الاصحاب وان كان
المقتدى به من اهل النفاق والارتياب أو الكذب والخيانة ،
فمن ههنا يتضح لك انه لا يمكن الاخذ بهم في هذا الحديث لكثرة
من خرج عن عمومهم .

ولو تسالمنا على صحة هذا الحديث واردنا ان نأخذ بعمومه
فهل يريد النبي (ص) به أن يجعل من الصحابة ثقلاً ثالثاً في
قبال الكتاب والعتره ، وكيف ينصب للامة اعلاماً تتضارب ،
وأئمة تتحارب ، وكل واحد منها يحارب الآخر خدمة للدين
ونصرة للحق ، بل إنما يريد أن يجعل من الصحابة قدوة صالحة
للناس لانهم المثل الأعلى في الاخلاق والفضيلة ، ونحن لانرتاب
بوجود من يصلح منهم لتلك السكينة السامية ، ولكنها في الصالح

لا الطالح ، وفي المؤمن لا المنافق ، وقد نصب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله اماما لا يشك كل مسلم بصلاحه وهداه ، هو الكتاب والعترة ، وهما المحك للتمييز بين الاصحاب ، فمن سار على نهجها القويم ، واخذ عنها العلم والتعاليم ، فذلك القدوة المتبعم دون سواء ممن اختلف بهما او خالفها .

وجملة القول ان الحديث الاول يجعل الثقين خليفته بعده ويجعل التمسك بهما وسيلة الهداية ، ومنه نعلم ان الاصحاب ان درجوا على سنن الثقين فهم اهل للاتباع والافتداء لانهم قبل ثالث ، بل لانهم تمسكوا بالثقلين امثالا لاهل الرسول الناصح الامين (ص) . واما ان خالفوا سيرهما ، واتبعوا غير نهجهما فلا سبيل الى اتباعهم ومجانبة الثقين ، اذ ليس لنا برهان على الافتداء بكل صحابي على أي حال وان خالف الكتاب وأهل البيت ولا يمكن الاخذ بعموم حديث الاصحاب - وإن صح - اذا كان يرجع بنا القهقري عن اتباع خطي الكتاب والعترة ، بل لا بد لنا من طرحه لخافته لما انعقد اجماع اهل الاسلام على هدايته وهو الكتاب والعترة ، او حمله على الصحابة الابرار الذين جعلوا الثقين لهم قدوة واماما .

ويجوز - إن صح الحديث - أن يراد من الأصحاب
أهل البيت خاصة ، لأن أهل البيت من الأصحاب ، وليس
الأصحاب كلهم من أهل البيت ، وليس في هذه الاستنادة بأس
بعد أن كان الأخذ بعموم هذا الحديث مستحيلا لا يمكن المصير
إليه ، وحمل هذا الحديث - أن صح - على بررة الصحابة أو على
أهل البيت أجمل من طرحه والقائه .

فلا بدع اذن لو قلنا : أنه ليس هناك غير الثقلين قدوة
ومتبع ، وكل من على وجه البسيطة يجب عليه التمسك بهما
والافتداء بهديهما ، ولا فرق في ذلك بين الأصحاب وغيرهم
من معتقي دين الاسلام .

ألا وانهما لن يفترقا مني بردا علي الموصه

إن رسالة خاتم الانبياء عليه و على آله السلام باقية مدى
الزمن ، مستديمة عمر الدنيا ، فكتابه الكريم لا محالة باق يقاء الدهر
وبقاء البشر ، لا تبلي جدته تطاول السنين ، ولا ينسخه كتاب
لانه ، معجزة رسالته الخالدة ، وحجته على العالم كله ، ومن أين
نعرف صدق نبوته اليوم لولا الكتاب .

والا كان الكتاب صامتا ، و كان أساس الشريعة الباقية
وتبينا لكل شيء وفيه ما يحتاج الى التأويل والابانة ، وجب أن
يكون له قرين يصحبه طيلة بقائه ليكون ناطقا بتأويله ، كاشفا
عن غوامضه ، فاصلا بين المتشابه والمحكم من آياته ، مميزا بين
الناسخ والمنسوخ ، والخاص والعام ، وماسوى ذلك مما لا يستغني
عن المؤول الناطق .

وهل ياترى يصح في ذلك المفسر أن يتأول برأيه دون
أن يكون عالما بالتنزيل كما نزل به جبرئيل ، أو يكون عالما

بعض وجاهلا بعض ، فلا بد اذن من أن يكون علما بجميع
تأويله على حسب تنزيله ، اثلا يتورط في الهلكة اذا تأول بشيء
بخالف نزوله .

وهل يأتري يجوز فيه أن يسهو وينسى ويخطئ . ويزل ؛
فيقع وبوقع الناس في التحريف والتصحيف ومخالفة التنزيل ،
فاذن لامندوحة من أن يكون ذلك المؤول العالم بجميع التنزل
معصوما من هذه العوارض التي لا يسلم منها عامة البشر .

فبقاء الرسالة الاحمدية قاض ببقاء كتابه ، وخلود الكتاب كفيل
بوجود قرينه واستدامة وجوده ، ذلك الوجود المقترن بهاتيك الصفات
التي تكشف عن ملكته القدسية ، والتي تجعل منه انسانا كاملا .
بريتا من النقص ، كما هو شأن قرينه فبقاء الثقلين الى يوم القيامة
لا محيد عنه مادامت رسالة المصطفى (ص) باقية ومادامت رحمة
للعالمين ومادام زمان ، وما بقي انسان ، وان لم يصرح الرسول
(ص) نفسه بهذا البقاء والخلود ، فكيف وهو يهتف بذلك
مصرحاً به دون ماتورية او كناية

وما أشرنا اليه يجب ان يعرفه كل أحد من دون غور
وتعمق في الفكر ، فهذا ابن حجر في الصواعق يقول بعد الآية

الرابعة مما نزل في فضل أهل البيت : إن الحث وقع على التمسك
بالكتاب وبالسنة وبالعلماء بهما من أهل البيت ، ويستفاد من
مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة الى قيام الساعة .

هذا ما قاله ابن حجر ، وما يجب ان يقوله غيره بدلالة
هذا الحديث الشريف ، وحكم العقل السليم ، ولا نريد ان
نستهطق غيره من الاحاديث وان عاضدت هذا الحديث في مفاده
لان الهدف من هذا البيان بيان ما يفيد هذا الحديث دون سواء
وهذه المقارنة بين الثقلين ودوامهما على هذه المقارنة الى
قيام الساعة ينبهنا الى امور جليلة ، نشير اليها في العناوين الآتية :-

منهم اهل البيت الباقر الى الحسين

دلنا صدر هذا الحديث الشريف - كما سبق بيانه - على أن المقصود من أهل البيت علي - وهذا صاحب الرسالة هو المرتضى والسبطان خاصة ، ولكن قوله (ص) وانها لن يفترقا حتى يردا علي الخوض دل على ان العترة باقية ما بقي الدهر وبقيت رسالته وبني كتابه ، فمن ياترى المعني من العترة .

ان الهاشميين بعد السبطين كثيرون ، ولا سيما من كان من ذريتهما ، فهل اراد الرسول (ص) باهل البيت جميع بني هاشم ، أو خصوص العلويين ، أو فئة من العلويين خاصة .

إن كثيراً من الهاشميين والعلويين محتاجون الى التعليم والارشاد ، وكيف يكون المحتاج الى هذا قرينا القرآن الذي اشتمل على تبيان كل شيء ، القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، القرآن الباقي معجزة مدى الأبد فقرين القرآن لا بد أن يكون على شاكلته ونطاقاً بما حواه من بيان

فأذن لابد من أن يكون البشير النذير عن فئة خاصة من أهله ،
عندهم علم الكتاب ، وهدى الامة ، لاسيما وقد جاء على بعض الروايات
في ذيل هذا الحديث قوله : ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم . وانت
تري أن بني هاشم كالناس من البدء حتى الساعة في احتياجهم الى
التعليم والهداية ، ولبسوا بأعلم من الناس في علم الكتاب ولا في سواه
فاذا كان الرسول (ص) يقصد من أهل البيت رهطاً خاصاً ، فهل
قصد أناساً تجهل الامة أعيانهم ، ولا تهتدي اليهم بأشخاصهم ، أترى
ان الله والرسول يكلفان الامة شططا ، ويحملانها على معرفة من
لا تهتدي اليه ، من أين للامة الوصول الى مجهول الاسم والسمة ، مجهول
المكان والجهة ، لأن بني هاشم انتشروا في الارض فلا يخلو منهم قطر
ومصر ، ولا صقع وناحية

فلا بد أن يكون الرسول أراد رهطاً من قومه معروفة أسماءهم
وسماهم معلومة أوطانهم وجهاتهم لا ينكرهم الناس بعد التعريف
ولا يخفى حالهم بعد الاشارة والتوصيف

فمن هو المتقصد بتلك الصفات ، والمعروفة حاله عند
الناس ، غير اتسمة من أولاد الحسين ، الائمة المروفين من علي

ابن الحسين الى المهدي ابن الحسن العسكري الغائب المنتظر
عليهم السلام جميعا .

إن هؤلاء التسعة بعد المرتضى والحسين ينحصر فيهم
القصد من أهل البيت انحصاراً وجدانياً ، وحكماً عقلياً ، كما كان
في آبائهم ، وذلك لان الرسول انما أشار الى فئة موجودة
متسلسلة يدفعها الواحد منهم الى الآخر لئلا يخلو عصر من
الثقل الثاني ، وتلك الفئة عالمة بالكتاب لئلا يخلو عصره من قرين
له منهم عالم به ، ولئلا تخلو الامة يوماً ما من هاد لا يضل من
تمسك به ، معصومة من الخطأ والزلل ، نزيهة عن النقص والعيب
بريئة من الاهواء الضالة ، لئلا يحصل من اقوالهم واعمالهم
فساد ، وقد أرادهم الله للعلاج ، وليس في بني هاشم رهط اشتملوا
على هذه الصفات غير هؤلاء التسعة .

وهؤلاء هم الذين صرحت الاحاديث عن الرسول (ص)
باسمائهم وسماتهم ، ولو غنى الرسول باهل البيت أحداً غيرهم
لبان اثره ، وانتشر خبره ، وظهر امره ، ولوجب على الرسول
النص عليه والاعلام به ، وما ادعى النص عليه بالاسم والصفة غيرهم
من العلويين ولو ادى ذلك الى انقضاء احد من الهاشميين سواءم فلا

تقوم له الحجة ، ولا يجب التصديق بدعواه ، من دون أن يأتي عليه نص ، أو يكون لعله ظهور ، ولفضائله ميزة ، وهل شهدت الأمة غيرهم من الهاشمين من بعد الحسين الى اليوم سلسلة كان لها من الفضائل والمعارف والعلوم ما كان لهم ، وهل كان غيرهم من الآثار في التفسير والعلم والاخلاق ما مائل آثارهم فلا ريب اذن بعد امعان الفكر والروية في ان هذا الحديث

الشریف لا يريد غير الأئمة الاثني عشر من أهل البيت ، وهم الذين دلت الاخبار والآثار على ما لهم من علم وفضل ومعرفة وصلاح لا يدانيهم فيها بشر بعد الرسول (ص) وهم الذين وردوا العلم والفضيلة عن الرسول عن الوحي عن الفيض الاعلى ، وهم الذين بقيت سلسلتهم محفوظة بوجود المهدي المنتظر ، وهم الذين يصدق عليهم الى اليوم انهم العترة قرناء الكتاب ، وان انقلبن بوجود غائبهم ما زالوا باقين

هذا ما اهتديت اليه من معنى الحديث املية عليك ، واحسب انه جلي لا غبار عليه .

المهرى الغائب من أهل البيت

افصح هذا الحديث بان في كل عصر عالما بالكتاب من
اهل البيت حسبا نزل به الروح الامين من رب العالمين ، وصدع
به رسول الرحمة والمهدى ، فمن هو عالمهم اليوم بالكتاب .
لا بد أن يكون ذلك العالم المنصوب للأويل الصحيح
معلوم الاسم والنسب والنعمة ، لانه مرجع العالم كله في تفسير
الكتاب وهدى الامة ، وكيف ينصب الرسول الناصح لامته
لما لهم في الهداية وتأويل الكتاب ، وبخفي عليهم شمائله وحليته ،
وكيف يفرضه الله تعالى - حجة عليهم ويسألهم الرسول (ص) عن
معرفة والتمسك به ، ولم يجعل امارا على تعيينه ، ودلالة على تشخيصه
ان الله لا يكلف نفسا غير ما وسعت ، ولا يسأل الرسول الامة عما لا
يعلمون وعما لا يقدرّون ان يعلموه عادة ، فاذا جاز أن يكلف الله العباد
تصديق نبي مجهول في ذاته وصفاته جاز أن يكلفهم معرفة امام هاد مجهول
الخصال والذات . ولا يكفي أن يكرن ذلك العالم معلوما فريب ، بل لا بد

أن يكون أيضاً موجوداً ، لان الناس في كل عصر يحتاج الى
الرجع في التأويل والموئل في الهداية لتستعلم منه حاجتها ويحل ما
اشكل عليها ، لان الحوادث المشككة المحتاجة الى الحل وازاحة
الشبهة تتجدد في كل زمان ، كما يحتاج في كل وقت الى المرشد
الهادي ولورجعت الناس الى العالم المنصوب للتأويل والهدى لملها
على المحجة البيضاء والصراط السوي ، ولم يتركها تحيد عن
الشريعة الناطق بها الكتاب والسنة قيد أنملة

ولا يغنى الرجوع الى الميت في كل شيء من التأويل اذ
قد يأتي في الحوادث من الشبه ما لم يسبق لها ذكر أو نظير ومن
الاحكام ما لم يشر اليه الائمة السابقون ، ومن شبه الامم المخالفة
ما لا حل له من الماضين ، فمن يكون المرجع في ذلك وفي هدى
الناس ان زاغت اذا لم يكن الخلف حياً .

ولو اغنى الماضون من الهداة لاءغنى ذلك في الانبياء ،
أو اغنى منهم أهل الشرائع خاصة ، ولماذا بلغوا مائة واربعين
وعشرين ألفاً ، ولماذا فرض الرسول اماماً لكل زمان وأوجب
على الامة معرفته فقال (ص) من مات ولم يعرف امام زمانه مات
ميتة جاهلية ، ففهمنا من هذا الحديث ان لكل زمان اماماً .

كما فهمنا ذلك من الكتاب الكريم حيث قال : يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، لأن الخطاب لم يكن لقوم بخصوصهم فإذا عم أهل الإسلام كافة ، وأبناء الأجيال عامة ، عرفنا أن لكل زمان والياً يسألنا الله عن طاعته كما يسألنا عن طاعة نفسه تعالى وطاعة رسوله (ص) ، فكيف نرى شأن أولئك من الهدى والرشد والصلاح عند ما قرئت طاعتهم بطاعته وطاعة الرسول (ص)

فإذا وجب أن يكون المؤول الهادي وقربى الكتاب من العترة حياً موجوداً في هذا العصر ، ومعلوم لدى الأمة كافة في ذاته وصفاته فمن هو إذا لم يكن ابن الحسن العسكري ، فإنه لا يوجد اليوم منهم أحد معلوم الذات والصفات ، يحمل تلك الملائكة القدسية وذلك العلم الإلهي الجهم ويستطيع أن يقود الأمة إلى الهدى ويحملها على اتباع الكتاب وتأويله كما جاء به الرسول « ص » فإذا لم يكن ذلك ابن الحسن عليه السلام فقد خلت الأرض اليوم من الثقل الثاني ، وخلوها منه مستحيل عقلاً ونقلاً .

فهذا الحديث يرغمننا على الاعتقاد بوجود عالم منهم بالكتاب يجب على الأمة معرفته للتمسك به والانقياد لأوامره

ونواحيه ، فاذا لم يكن ظاهراً مشهوراً ، افلا بد ان يكون غائباً
مستوراً ، نعم يجب ان يكون معلوم الاسم والنسب والصفة ،
وايس اليوم فيهم احد كذلك غيره فاذا لم يكن أحد في العترة
سواه على تلك النعوت فلا مندوحة من القول بان المهدي مولود
موجود ، وانه هو امام الامة وعالمها ، وأحد العترة التي يجب
التمسك بها ، والجامع لصفات الكمال كلها في هذا العصر ، المنزه
عن خصال النقص جميعها ، المعبر عنه بالانسان الكامل .

ولو كان غير مولود ، او موجوداً غير معلوم لكان الحديث
متخلفاً عن اعلامه ببقاء العترة الى يوم الساعة ، العترة العلمية
بالقرآن ، الهادية للامة الى انتهاء الزمان المعروفة اسماءاً
وصفات .

ولو ادعى أحد من الهاشميين سواه ذلك العلم وتلك
الخلافة الذين دل عليهما هذا الحديث الشريف لوجب علينا أن
ننظر في صحة تلك الدعوى ، ونختبره في الله ، ونمتحنه في
مقدرته من اقامة الحجة واطهار الكرامة ، ولكن العصر من
يوم وفاة الحسن العسكري الى اليوم خال من ذلك المدعي غير
الغائب المنتظر .

وان وجوده بنير مخاصم لدعواه يقضي باستقامة وجوده ،
لانه لومات لوجب ان تنقل تلك المنزلة الكبرى الى غيره ، ومن هو
ذلك الغير لو كان .

وجملة القول ان الحديث الشريف يرغنا على الاعتراف
بوجود الخليفة الثاني من العترة في هذا اليوم ، وليس أحد غير
ابن الحسن لهذا المقام بوصف فيعرف .

غير ان الذي يستنكره أو يستكبره قوم من شأن
ولادته من قبل وحياته الساعة امور واهمها امران .

الاول . انه كيف يعيش انسان هذا العمر الطويل ، فقد
ولد - ان كان مولودا - باتفاق ارباب الحديث والفضائل
والتاريخ عام ٢٥٥ هـ بية ، فيكون عمره اليوم في عام (١٣٦٤)
١١٠٩ من الاعوام .

الثاني . ما فائدة امام وعالم نصبه الرسول (ص) لتفسير
الكتاب وتعليم الناس وهدايتهم وهو محجوب عنهم ، لا يستفيدون
من وجوده ، وكيف يحتاج الله على الامة بامام لا يصلون اليه
فيأخذون عنه ويهتدون به .

إن الجواب عن هذه المباحث تستطردّها كتب الكلام

في مباحث الامامة ، بل اعدت لهذا الغرض كتب خاصة امثال
غيبة الشيخ الطوسي طاب ثراه ، وقد اجبنا عن ذلك في رسالتنا
- الشيعة والامامة - ونشير الآن ايضا الى الجواب لثلاث تلخو هذه
الرسالة الوجيزة من هذه الفائدة الجليلة فنقول :

أما الجواب عن الاول فشاعدنا عليه الكتاب الكريم ،
فأين انت عن نوح عليه السلام فقد لبث في قومه يدعوهم الى
خمسین سنة ، فكم لبث قبلها ، وكم لبث بعدها ، فان المهدي
المنتظر حتى اليوم لم يبلغ عمر نوح ، وأين أنت عن ادريس
وعيسى عليهما السلام وحياتهما اليوم ، فقد رفا الىه من دون
موت ، وكفى دليلا على بقاء الانسان العمر الاطول بقاء الخضر
عليه السلام وكان معاصر لموسى عليه السلام ، واذا جاز الحكمة
ان يطيل الله تعالى أعمار أنبيائه عليهم السلام فلماذا لا يجوز ذلك
في أوصيائهم وخلفائهم ؛ وما اكثر الشواهد في التاريخ من
طال بهم العمر ، غير اننا استغنينا عنهم بمن لا ريب في استطالة
عمره وبقائه لان القرآن الكريم قد ذكره ، وهو قطعي الصدور .
وأما الجواب عن الثاني فنجدير بان نحيله الى الله تعالى ،
لان الايراد أشبه بان يكون عليه جل شأنه . فان لابن الحسن

عليها السلام امثالا من الانبياء والرسل قتلهم الناس من دون ان يعملوا بدعوتهم ، ويهتدوا بهداهم ، فلهذا بعثهم الله جل شأنه وما يجاب به عن امر الانبياء فهو جوابنا عن شأن الامام المحجوب فانك ان قلت انه ارسلهم لطفاً بالعباد واقامة للحجة عليهم ، وكان التقصير في عدم الاستفادة بهم من الناس انفسهم فذاك جوابنا بعينه ، ونزيده ايضاحاً .

وهو ان الواجب في النبوة والامامة امور ثلاثة ، أن يخلق الله تعالى لطفاً بعباده رجلاً له الكفاية والمقدرة على النهوض بعبء النبوة أو الامامة ، وان يقبل ذلك الرجل تلك المسؤولية العظمى ، وان يطيع الناس ذلك الرجل المبعوث أو المنصوب لذلك الشأن الخطير بعد اقامة المعجزة والبرهان .

فما كان من الله ومن الامام فقد وقع ، واما الناس فلم يكن منهم ما وجب ، شأنهم مع آبائهم ، بل قضا عليهم قتلاوسما فوق الخلاف والعصيان ، وعندما قضى المعتمد العباسي على أبيه الحسن العسكري عليه السلام بالسهم عام ٢٦٠ هجرية فتش عنه الغرف والبيوت ليقتله فهرب منه وغاب وهو ابن خمس ، وقد وعد الله تعالى الناس على لسان نبيه صلى الله عليه وآله بأن يملأ به

الارض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ولا بد ان يظهره
للعباد برآ بوعده فانه لا يخاف الميعاد ، والله سبحانه اعلم بالوقت
الملائم ولو كان يومه الموعود فيه ظهوره هذا اليوم او أمس اظهر
فيه ، والله أمره بالغة

فالناس هم الذين فوتوا المنفعة من وجوده ظاهراً ، كما
فوت الاوائل المنفعة من الرسل والانبياء ، وعسى ان يكون
في وجوده مستورا فوائدها نجما في اليوم ونورها غداً عند ظهوره
فايس البأس اذن في غيابه الا من الناس .

وان كان معاصروه هم المسيئين في تغيبه الا ان
استمرار الغيبة كان من اهل الازمنة اللاحقة ، وكيف يأمن من اهل
هذه العصور أن يحاربوه لو ظهر ، والناس امثال الناس والعصور
متشابهة وما لم يثق من الناصر كيف يظهر .

ومن يقدر أن يثبت ان أعوانه اليوم لو ظهر أكثر أو أقدر
من أعدائه حتى يقوى بهم على محاربة أعدائه والتغلب عليهم
واين أولياؤه من أعدائه عددا وعدة ، فان من يعترف بولادته
وحياته اليوم كمثل الشعرة البيضاء في جلد انثور الاسود ،
وكيف مثل هؤلاء يقهرون محاربيهم الا ان يشاء الله

فما دمنّا لا نعرف الوقت الموافق فالاخرى ان نسكت 'موكلين
الامر اليه تعالى ، منتظرين تعجيل الفرج به . عجل الله تعالى
فرجه وفرجنا به .

ومن أين نعرف ان الناس تلي دعوته بدون حرب
وجهاد ، ولم لا أجابت آباءه من قبل ، والتاريخ - كما
يقولون - يمد نفسه .

المهدي بنهي الدنيا والرجعة

جاء من طرق الفريقين عن النبي (ص) أن الأئمة من قريش ثم من بني هاشم ثم من ولد علي وفاطمة ، ثم انهم اثنا عشر ، ثم النص عليهم باسمائهم ، فيكون المهدي المنتظر آخرهم ، فاذا ظهر عجل الله فرجه كان بوفاته قيام الساعة لقوله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث : ان يفترقا حتى يردا علي الحوض واذا توفي و كانت الدنيا بقية فلا بد اذن من رجعة النبي (ص) والأئمة عليهم السلام كلهم أو بعضهم الى أن تنتهي الدنيا ، لان الامامة وعلم الكتاب اذا انحصرا بهؤلاء الاثني عشر ولم تنته الدنيا بموتهم فلا مناص لنا عن القول بالرجعة ، لا سيما والرجعة غير ممنوعة عقلا ولا نقلا ، بل هي جائزة عقلا صريحة نقلا ، فهي ممكنة في ذاتها جائزة عليه تعالى . والممكن اذا وجدت علته ان وجد لا محالة

فإذا جازت الرجعة عليه تعالى وقام عليها البرهان
 العقلي والنقلي فاي بأس بالذهاب إليها ، والقول بها ، ونحن إنما
 نستضيء بنور العقل ، ونهتدي بمصباح الدليل ،
 وإن استبعاد بعضهم أو إنكارهم تهو يس لا يقاوم الدلائل ،
 واعتقاد البعض بعدم الرجعة من دون برهان لا يكون
 برهان العدم .



أهل البيت معصومون

عندما التحق رسول الله صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى بعد ما اكمل الدين اصبحت الناس شيعة ومذاهب في احكام الدين وللاسائل أن يسأل : أكان ذلك لان الرسول لم يحسن التبليغ فلم يؤد وظيفته ، ام لان الناس لم يكن فيهم معصوم يأخذ عن النبي صلى الله عليه وآله أخذاً صحيحاً كما نزل عليه وصدع به من دون نقص او زيادة في السماع والاداء فيحمله الى الناس كما اراده الله سبحانه ، ام كان معصوم ولكن الناس انصرفوا عنه واعتمدوا على انفسهم ، واثبت سلموا من العمد فلا يسلمون من الخطأ والسهو والنسيان في السماع او التأدية .

ان الله عز شأنه انما بعث النبي له داية البشر واصلاحهم وتوحيدهم في الدين والشريعة « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » والنبي معصوم فلا يخطئ ولا يني ولا يقصر في التبليغ ، فلا اختلاف

اذن بعده اما لصفحتهم عن المعصوم او لعدم وجود المعصوم .
 ان تلك الغاية النفيسة التي من اجلها بعث الله تعالى
 رسولنا والرسول من قبله تلزم بان يكون معصوم في كل عصر
 لحمل الناس على الهدى ، وكفهم عن الضلال وتادية ما صدع به
 والا لم يقع الغرض المطلوب بتمامه من وحدة الاحكام والدين
 واجتماع الناس ، وهذا لطف والله جل لطفه لا يحبس لطفه
 ولا يمنع العباد هدايته « انا هديناه النجدين » ولا يحملهم على الخائفة
 بعد اقامة الدليل لهم ثم يعاقبهم على ذلك الخلاف وهو مسبب
 عن حبسه اللطف ، فلا مناص من ان يكون الناس هم الذين
 اختاروا الضلالة بمخالفة الخليفة المعصوم ، لأن ذلك الاقتراق
 والشعب يستحيل ان يستند الى تقصير النبي صلى الله عليه وآله
 في التبليغ والله تعالى أكمل الدين وانم النعمة به (ص) قبل
 فراقه الدنيا ، او الى حبس الله لطفه عن العباد ، وهو اللطيف ،
 الرؤوف ، الهادي الى سواء السبيل .

فوجود الهادي المعصوم لا بد منه في كل عصر ليتم به
 اللطف ويحصل به الغرض المقصود من الوحدة ديننا واحكامنا
 واجتماعنا ولا تقوم الحجة على العباد بد الرسول إلا به ، وان

هذا الحديث الشريف يرشدنا الى ان ذلك المعصوم الواجب
 وجوده في كل زمن هو من اهل البيت ، وذلك لان الكتاب
 العظيم « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » لا يجوز
 عليه الغش والكذب والاضلال والخيانة في هدى البشر
 وإرشادهم الى الحق ، وان اهل البيت بحكم هذا الحديث عدل
 القرآن وقربنه والهاء به ، فلو جازت عليهم هاتيك الرذائل من
 الغش والاضلال والكذب واضرابها لاختلوا مع الكتاب
 وخالفوه ففارقوه ، وهذا لا يكون منهم ابداً لانهم الملائمون
 للكتاب حتى قيام الساعة ؛ كما ينبئك عنه قوله : انهما لن يفترقا
 حتى يردا علي الحوض فما داموا والكتاب معا سلم الرشد ومنار
 الهدى كانوا برئين عن مثل الاضلال والاغواء والكذب
 عمداً وسهوا كما كان قرينهم الكتاب ، واذا كان ذلك غير جائز
 عليهم كانوا معصومين لا محالة شأن الكتاب الكريم ، والعصمة ملائكة
 نعم الانسان من ارتكب الجرائم واقتراف الآثام ، ونحو طه عن
 غشيان الرذائل والنقائص عمداً وخطأ وسهوا وغفلة ونسياناً
 وهذا هو الحد الفاصل بينها وبين العدالة ، لان العدالة انما

تَمْنَعُ عَنْ أَتْيَانِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ عَمْدًا وَلَا تَمْنَعُ عَنْهَا سَهْوًا وَنَسْيَانًا
وخطأً وغفلة .

وإن إخبار الحديث عن استقامة أهل البيت على الهداية
إلى الحشر دليل على وجود تلك العصمة في قرين الكتاب منهم
في كل عهد

فالحديث كما يرشد إلى عصمة الكتاب يرشد إلى عصمة
رجالهم وعلمائهم وأصحابه وقرنائه ، بمقاد واحد ومدلول ثابت فيها
معاً ، ولو أن أهل البيت لا يتفقون مع الكتاب في العصمة ، وغير
مأمونين من السهو والنسيان والغفلة والعصيان ، لجاز أن ينطقوا
ولو أحياناً بتأويل يخالف الحقيقة ويبين الحق ، وأين هذا من
عدم الضلالة أبداً بالتمسك بهم ، وأين هو من اتفاقهم مع القرآن
حتى آخر لحظة من الزمان .

فلو لم يكن لدينا دليل على عصمة أهل البيت غير هذا
الحديث لكفى به شاهد أو دليلاً

علمهم لدني

العلم اللدني ما كان من علام الغيوب سبحانه على نحو الالهام
او الوحي ، فيحصل للنفس من لدن النفس لا من خارجها بتعلم
واكتساب وجد واجتهاد ، وهذا الحديث يدلنا على ان علمهم
بالهام من لدنه تعالى ، ونستفيد ذلك من وجوه

١ — أن الرسول (ص) كان يستقي علمه منه تعالى
بالوحي وقد ترك اهل بيته خلفاءه على الامة كما هداانا الى ذلك
هذا الحديث ، والخليفة المنصوب يجب ان يكون مثالا لمن خلفه
للهداية والاصلاح ، وحاكيا لخصاله وفعاله لاسيما والتحلف حكيم
وبصير نأربه في التخليف صلاح الامة ، وانما اشار الى الخليفة
بأمر من فاطر الخليقة ، العالم بضمائرهم وسرائرهم ، فلا بد أن
يكون علمه من نوع علم النبي لدنيا . وإذ دلّ الدليل على أن
الوحي منحصر بالنبي فلا بد أن يكون الهاميا

ولو كان أهل البيت على غير شاكلة الرسول «ص» في العلم
والعرفان ، والشائئ والمضائل ، لما صلحوا ان يخلفوه وينوبوا
عنه في تعليم الامة ، وتفسير الكتّاب ، وسياسة الناس على
ما يفرضه الدين والقرآن ، ولما كان التمسك بهم سبيل الرشـد
والهدى ، والتخلف عنهم مدعاة للهوى والهلكة

٢ - أن القرآن نزل منه جل وعز وفيه من الآي ما يحتاج
الى تأويل وكشف ، فوجب أن يكون علم تأويله مستمداً منه
تعالى ، لان علم الناس يجمع بين الصواب والخطأ ، ولو كان
صواباً كله لكان واحداً لا اختلاف فيه ، وما اكثر الاختلاف
فيه كما تنظر وترى ، وما ذاك الا لما فيه من شطط وغلط ، فمن
اخذ عن الناس العلم اخذ الصواب والخطأ ، فاذا وجب أن يكون
علم الكتاب كله صواباً وجب أن يكون من الله تعالى خاصة ،
من دون أن يكون منه ومن الناس ، ولان الناس دونة ، وحين
قرنهم الرسول (ص) بالكتاب علمنا أنهم العلماء الذين استعملوا
علمهم الفهم من العلم تعالى منزل ذلك الكتاب

- اذا كان علم أهل البيت يتعلم من الناس كان الذي
يعلمهم أجدر بخلافة الرسول وعلم الكتاب منهم

وكيف يرشد النبي (ص) الى أهل بيته في علم القرآن ومقارنتهم له وفي الأمة من هو أعلم منهم به وأهدى الى الصواب وعندما أشار (ص) الى أهل بيته خاصة دون الناس عرفنا انهم أعلم الناس بالكتاب ؛ فاذا كان علمهم صواباً أبداً وفوق مستوى علم الناس لزم أن يكون مستفاه من عالم فوق الناس ، ومن ثم جاء في بعض طرق الحديث : ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم

٤ — أن حصر الخلاف فيهم وفي الكتاب أنبأنا عن وحدتهما وانحصار علمه الصادق فيهم ، وهذا يدلنا على أن علمهم من يوم وفاة الرسول (ص) الى يوم الساعة واحد ، لا يعتريه تغيير ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان . وهل يستقيم علم في بيت واحد عمر الدنيا ، على اختلاف شعبه وفنونه ، وهو يسير على شاكلة واحدة ، لا يختلف نقصاً وزيادة ، وتباينا ومعارضة ، وذلك العلم مكتسب من الناس ، وهل شاهدت علماء توارثوا العلم وتناقلوه هذا العصر الاطول على اختلاف شعبه وفنونه ، من دون أن تحدث بين أوقاته فرجة خالية من عالم وكان ذلك العلم اكتسبوه بتعلم ، وحصلوه بمجد ، وكيف

لا يحصل هذا العمر في سلسلتهم جاهل ، وكيف لا يختلف مراتبهم في مقدار ما يعلمون ، وعلمهم من الصدور والسطور فلا بد من أن نعتقد بان هذا العلم الساري على نهج واحد مستند الى غلام الغيوب تعالى من دون أن يتوسط في تعليمه الناس ، لان مثله لا يكون في علم الناس ابداً

٥ - كيف اعتمد الرسول « ص » على علم أهل بيته بالقرآن طول الابد ، وأمن أن لا يكون فيه خطأ واغواء ، وشك وكذب ، وتختلف عما في الكتاب الجاع لبيان كل شيء ، وما علمهم إلا من الناس وعن الناس أفصح أن يخبر النبي الصادق « ص » عن استدامة العلم والعلماء في أهل بيته مدى الزمن على مثال واحد ، وان علمهم صواب لا خطأ فيه ، وهدى من غير تضليل ، ونصح من دون غش ، وصدق بلا كذب ، واثبتك العلماء من سائر البشر لا ميزة لهم على الناس وعلمهم مأخوذ من الناس إن مثل هؤلاء العلماء لا يكونون كالناس أبداً ، ولا علمهم عن الناس بتاتاً بل ان العقل والوجدان والعادة أدلة على أن مثل هؤلاء فوق مستوى البشر الذي يقم عليه البصر ، وان مثل هذا العلم الذي عندهم لا يكون إلا مستمداً من الفيض الاعلى ،

وان مثل هؤلاء العلماء لا تأتي بهم الظروف والأيام صدقة بل هم
معنيون بالخلقة ومنح ذلك العلم ، منصوص عليهم منه عز شأنه
بواسطة رسوله الامين صلى الله عليه وآله

هـ . هذا بعض ما دلنا عليه هذا الحديث الكريم من علمهم
من لدنه سبحانه لا يرثفون فرانه من مياه الناس الآجنة ، وأين
العلم المستقي من ينبوعه الفياض من العلم المستقي من ينابيع
الناس

علماء بكل شيء

يفهمنا هذا الحديث الشريف ان اهل البيت علماء بجميع ما في الكتاب لانهم قرناؤه في الهدى ، فلو سئلوا عن حرف من الكتاب العزيز ولم يكن علمه عندهم لخرجوا عن مقارنته في الهداية وتخلفوا عن معادلته في الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وآله بل يحملون الناس على الرية والمروق بسبب الجهل بالكتاب عند السؤال عنه واين هذا من اخبار النبي (ص) بانهم منار الهدى عمر الدهر ، فلا بد اذن من أن يكون علم الكتاب جميعه عندهم .

فاذا كانوا - بدلالة هذا الحديث - علماء بجميع ما في الفرقان الحكيم كانوا علماء بكل شيء ، لان الله جل ذكره يقول في محكم كتابه : ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ويقول : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء .

نعم اننا نجعل هاتيك الجامعة الكبرى لا كتاب، ونجعل
كيفية علمهم به، وهذا الجهل بتلك الجامعة وتلك الكيفية لا يدعو
الى الشك فيها

إن من الجهل ان ننكر صحة ما نجهل ، فنكون مصداقا
لقولهم : المرء عدو ما جهل ، ومن عدائه لما يجهل نكرانه له

إن القصور عن ادراك المنازل السامية في العلم والعرفان
لا يقضي بانكارها ، بل يجب التسليم بها مادام الدليل قائما عليها
عقلا وكتابا وسنة ، ومادام الوعاء صالحا لان يحزن ذلك العلم
ومادام الناس في حاجة لامثال هؤلاء العلماء . نعلم يقينا من الآيات
والروايات والآثار بأن مراتب اهل البيت في العلم والمعرفة والفضيلة
سامية جداً ، لا يدانيهم فيها الناس ، ولا يقترن بهم فيها أحد ، لأن
ما جاء في نعت علومهم مثل قوله تعالى : ومن عنده علم الكتاب
وقوله « ص » : انا مدينة العلم وعلي بابها ، وقوله « ص » :
ولا تعلموهم فانهم اعلم منكم ، ومثل قول المرتضى عليه السلام :
سلوني قبل أن تفقدوني ، وقوله : علمني رسول الله (ص) الف
باب من العلم يفتح لي من كل باب الف باب ، وقوله وقد وضع
يديه على صدره : هذا سبط العلم هذا لعاب رسول الله « ص »

وقوله وقد اشار الى صدره ان هاهنا علما جما لو اصبحت له
حيلة ، وما ضارح هذا مما يكثر تعداده يعلمنا بان علمهم الغمر مستمد
من الفيض الاعلى ، فانظر هل لهذا البحر ساحل ، فاذا كان علمهم
بهاتيك الصفة فهل يوجد عند الناس حتى يتعاملوه منهم

على انك لو استقصيت بعض آثارهم - ان كنت جاهلا
بها - لوجدت انهم مثال لهذا العلم فانهم ما سئلوا عن شيء إلا
وجد السائل علم ما سأل عنه عندهم ، ولا ابتدأوا بالبيان عن
أمر إلا أظهروا للناس ما لا يحتسبون وما لا يجدون علمه عند
غيرهم ، فهذه الآثار وتلك الأخبار لاتدع مجالا للشك في انهم
حقا علماء بكل شيء حتى وان لم تصرح تلك الآثار
والاخبار بسعة ذلك العلم ، فكيف وفي هذا الحديث الشريف
دلالة وابانة على تلك السعة مشفوعا بتلك الاحاديث والآي
الصریحة .

وقد ساقني التوفيق قبل سنين فكتبت رسالة عن علم الامام
ولعل فيها ما يرفع الشك ويزيح الستار ، ويريك ان علمهم
فوق مستوى علم البشر ، وليس بدعا ان تكون لهم تلك السعة
من العلم لان الناس في حاجة شديدة الى مثل هذا العلم والعلماء ، وكيف

تستغني عن عالم معصوم عن الخطأ والغفلة والسهو والنسيان ترجع اليه
في تصحيح ما لديها من خطأ وشك وارتياح وما شابه
هذا ، وهل في الامة سواهم من نصبه الرسول علماً للرجوع في
الارشاد والتعليم .

اغنياء عن علم الناس

اذا كان علم أهل البيت مستمداً من علم العالم تعالى
بواسطة الرسول الامين « ع » وكانوا - كما يخبرنا عنهم هذا
الحديث - علماء بكل شيء ، فانهم لا محالة اغنياء عن علم الناس
لان الناس اخذوا عن الناس ، وعلى قدر ما بين المصدرين من
الفضل يكون التفاوت بين العالمين ، وكيف يحتاج العالم بكل شيء
الى علم مشابه صوابه بالخطأ ، ومنزج صحيحه بالسقم ، وكفى
برهاناً على هذا الشأن ما جاء في بعض طرق الحديث من قوله (ص)
ولا تعلموهم فانهم اعلم منكم ، ولو كانوا محتاجين الى علم الناس
لما كانوا اعلم من جميع الناس بل لزم أن يكونوا من سائر
الناس في الفضيلة .

الناس محتاجون الى علمهم

اذا كان الكتاب المنير حاويا لعلم كل شيء ، وكان أهل البيت عليهم السلام العلماء بما حواه ، فلا محالة اذن من ان الناس كلهم من البدء الى المنتهى ما دام الكتاب وما دام أهل البيت محتاجون الى هذا العلم الذي عند أهل البيت

ولا فرق في تلك الحاجة الى علمهم بين العالم من الناس والجاهل . وبين هذا اليوم وبين اول يوم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله لان خطاب النبي عام يشمل الامة اجمعها ولولم يكن شاهد على تلك الحاجة إلا ان علم الناس مزيج من الصواب والخطأ ، وان علمهم صواب محض ، ويقين بحت لكان فيه غنى عن الاستدلال بعموم الخطاب

ولو لم يجرى في بعض طرق الحديث : ولا تعاموهم فانهم اعلم منكم الدال على حاجة الناس اليهم طول الزمن لانهم اعلم الناس ، لكان من قوله ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا

دلالة صريحة بأنهم أجمع الناس لصفات الهداية والكمال ومن تلك الصفات العلم ، أتري أن الجاهل أهدي من العالم « أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهديّ إلا ان يهدي » فكان لزاماً على المسلمة ان تأخذ عنهم دون احد سواهم من الامة ، وتتبع هدايتهم دون غيرهم ممن زعم العلم والهداية ، وكان حتماً على اولئك الذين تظاهروا بالزعامة او العلم وتصدروا للحكم أو الافتاء ان ينقادوا ويقودوا الناس — ان اتبعوهم — الى اهل البيت روّاد العلم وورّاده ومصاييح الهدى وأعلامه دون ان يحاولوا بين الناس وبين ذلك العلم الالهي والهدى الابددي.

للامام عليهم

قد يعنى بالامامة تلك الامامة السياسية التي تشفع عن الملك ،
واخرى تلك الامامة الالهية التي ان انعقدت في الارض كانت
بأمر من رب السماء

لم تكن امامة انعقدت في الارض وكان مصدرها السماء
الا امامة أهل البيت . كما يراد أهل البيت ويراها ثلة من المسلمين
فيهم ، بعد ان أقاموا البرهان عقلا ونقلًا على ذلك ، وأما
الامامة التي يعقدها الناس من دون علاقة لصاحب الشريعة
ولا بأمر من الله جل شأنه فليست منوطة لأهل البيت ولا بمعنى
لهم ولأنصارهم ، ولئن طالبوا بحققهم من الامامة ، أو طالب لهم
شيعتهم ، فلا يقصدون من وراء ذلك ان يترفعوا على أرائك
الملك وانما يريدون ان يثيب الناس اليهم ليقوموا موازين العدل ،
وينصروا الحق والدين ، كما هو شأن الامام عندهم
فان تكلمنا عن الامامة فلا نريد منها إلا التي فرضها

الرسول «ص» عن الله عزّ شأنه، وتلك الامامة الالهية المفروضة ما ادعاها أحد سوى أهل البيت ، فمن ثمة تعرف انه لا امام عليهم من الله سبحانه ، واما الامامة المفقودة من بعض الناس فانما يفرضها الناس بعضهم على بعض ، وأين ما يفرضه الرسول صلى الله عليه وآله عن الجليل تعالى مما يفرضه الناس أنفسهم ، وما فرضه الناس لم ينزل فيه كتاب ولا وردت فيه سنة ولا ينفذ هذا الفرض إلا القوة أو المال لا الكتاب أو السنة فلو لم تكن للامام المفروض من الناس قوة تعضده أو مال يسنده لم تر الناس له امامة ولا طاعة ؛ أفهذا شأن الامام المفترض الطاعة ؟ .

والحديث الشريف يجعل - كما أشرنا اليه بدءاً - امامة وخلافة من الله تعالى فرضاً لا اختياراً للناس ولا تحجير لهم فيه ، فاذا كانت امامتهم هي المفروضة من الله والرسول على الامة فكيف يكون عليهم امام مفروض الطاعة ، ولو كان امام لوجب أن يكون مفروضاً من الله سبحانه على الناس كلهم حتى على أهل البيت فمن هو ذلك الامام وما دليله .

وأما الآية الكريمة القائلة : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فانها لا تأمر بطاعة يزيد

والوليد ممن أظهر الكفر فوق الفسق ، وكيف تفرض طاعة من
يجب على المؤمنين حربه وقتاله في الله ونصرة الدين ، نعم إنما
تريد الآية أن تفرض طاعة الأئمة الذين حبسوا أنفسهم على
مرضاته تعالى في الشريعة وفي الناس وفي أنفسهم ، وانقره حق
تقائه .

إنما بحكم العقل والنقل بطاعة مثل هؤلاء ، وأما من حبس
نفسه على الشهوات وخالف الله والرسول سرّاً وعلاناً ، ارحأف
مرة واطاع مرة ، فلا يجوز عليه تعالى أن يفرض على العباد برهم
وفاجرهم طاعته ، وكيف يفرض طاعة من يجب إقامة الحدود عليه
من عدول اهل الايمان ، ويجب نهيه عن المنكر المقيم عليه ، وامره
بالمعروف التارك له .

إن الله أعدل من أن يأمر بطاعة أرباب الكفر والعصيان
لأسيما اذا كانت الطاعة من اهل العدل والاحسان .
على اننا لو تأملنا في مدلول هذه الآية الكريمة لفهمنا
منها ان المقصود من اولى الامر قوم عصمهم الله من الزلل والخطأ
والذنب والعيب ولا بد أن يكون قد اعلم الناس عن حالهم ، لئلا
يبقى مفروض الطاعة مجهول الاسم والوصف .

بل لو تدبرت الآية الكريمة لعرفت ذلك منها جلياً واضحاً غير خفي ولا غامض، وذلك لان الله سبحانه قد قرن طاعة أوائك بطاعته وطاعة رسوله، وجعل هذه الطاعة واحدة، فلهذا انهم دون الرسول وفوق البشر في كل ما يستلزم الطاعة من شأن، ولو كانوا من سائر البشر أو دونهم في كل شأن لما قرنهم بطاعته وطاعة رسوله، أيا صلح العصاة أن يكونوا في صف الله ورسوله في الطاعة.

بل ان لفظة اولى الامر نفسها تشهد بان الامر لهم ذاتي لانها وصف منزع من الذات ولو كانت كاللباس المستعار يلبس مرة وينزع أخرى، ان رأوا انهم أهل الامر أو رأهم بعض الناس اهلاله كانوا كذلك، وان غضب الناس عليهم وانزعوهم ذلك الوصف انتزعه الله منهم ونهى عن طاعتهم، لما كانوا اولياء الامر حقيقة ولا كان الوصف لهم ذاتاً.

أنرى ان الله يتبع العباد فيما يرون ويرغبون فان رأوا طاعة احد رآها أو تقموا عليه وعزلوه عزها الله عنه الى من اختاروه أو اختار نفسه لها، فيا ليت شعري أهكذا تكون الطاعة المفروضة منه تعالى المقرونة بطاعته وطاعة الرسول كرة بأيدي اللاعبين يوجهها حيثما شاءت الالهواء، وكيفما رغبت النفوس،

ولو جاز ذلك في الامام لجاز في النبي ، فلا نبي إلا ما اشتهدت
الناس نبوته .

كلا . انا لو مجردنا عن النزعات لفهمنا من افظة اولى
الامر ههنا انها صفة خاصة بهم ، منحة لهم منه جل لطفه دون
الناس كلهم لباساً فصل على معاطفهم لا يعار ولا يستعار ، ولا يلبسه
ولا ينزعه الهوى ، كريشة في مهب الريح ، كما كان كذلك
شأن النبوة ،

فالحديث الشريف عندما يفرض امامة اهل البيت والتمسك
بهم يفرضها على الامة جميعها . الزعماء والسوقة والعلماء والجهالة
من حين وفاة الرسول « ص » الى قيام الساعة ، فمن أين تكون
امامة عليهم ، وما تفرضه الناس على انفسهم وعلى اهل البيت
لا يكون فرضاً من الله تعالى ، بل لا يضي ذلك الفرض حتى على
اولئك الناس انفسهم الذين اوجبوا تلك الطاعة عليهم ، فان
الوجوب والحرمة ومتملقاتها من الطاعة والمعصية لا يصار اليها
إلا بحكم من صاحب الشريعة ، لا بحكم من الناس حسب
الهوى والرغبة . ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال
وهذا حرام .

لا غلبت قبلهم

لا يراد من الخلافة إلا الامامة ، فالخلافة اذن قسمان مفروضة منه تعالى ومجمولة من الناس ، فما كانت منه عزّ شأنه فالحديث يجعلها للعترة خاصة على الناس اجمع ، وما كانت من الناس فلا نقصدها بالبحث ، فلا بدع لو نقول :

ان لا خلافة إلهية قبل خلافتهم ، ولا بعد خلافتهم حتى الحشر والنشر ، ولا مقارنة لخلافتهم .

ان الحديث الشريف يقول : إني تارك فيكم الثقلين ، فالثقلان هما الخليفةان من بعده ، ولو كان هناك خليفة من الله تعالى دونهما أو قبلهما أو معهما أو بعدهما لا خبر عنه الرسول (ص) كما أخبر عنها ، وآية اطيعوا الله قد أوضحنا البيان عنها ، على انها انما ألزمت بطاعة اولى الامر ، وليس فيها دلالة على أن اولئك الذين تسلقوا العروش من اولى الامر ، بل نحتاج في اثبات انهم من اولى الامر الى

دليل آخر ، فان ادلة الاحكام لا تثبت موضوعاتها إلا ان
 ينص الدليل على موضوعه ، وليس في الآية دلالة على تشخيص
 اولياء الامر ، وما كل من يزعم انه منهم يكون منهم .
 فهذا الحديث يثبت لنا ان الخليفة الرسول هو الكتاب
 والعترة ، وهو الشخص لاولى الامر المعنيين من الآية الشريفة ،
 فكيف يكون بعدئذ عاينهم خليفة لم يفرضه كتاب أو سنة
 أو عقل .

واما حديث اصحابي كالنجوم فقد عرفت ان الاخذ
 بعمومه يوقنا في هوة لانجاة منها ، فان النبي الناصح لامته أهدي
 من ان يجمل من المنافقين والخائنين قدوة لهم فحمله على البررة منهم
 المتمسكين بالثقلين او على خصوص الاصحاب من أهل البيت
 اجدر ، ولو ساغ لنا ان نأخذ بعمومه فلا نفهم منه انه يجمل من
 الاصحاب ثقلا يعارض الثقلين ، وخلافة تنافس خلافة أهل
 البيت ، لان الرسول بعث رحمة فلا يجعل من الامة ائمة يقضي
 تنافسها على الامامة بالبلاء والنقمة ، وكان من منافسة الصحابة
 لاهل البيت على الخلافة مواقف دامية لا يجهلها الناس والتاريخ .

التمسك برهما معاً طريق الرهبرى

إن الحديث ينطق بان الهدى بالتمسك بالثقلين معاً
ومعنى ذلك ان التمسك بهما معاً مصطحبين ، والاخذ عنهما معاً
متفقين ، دون ان يكون بواحد منهما بانفراده دون قرينه .

والوجه في ذلك هو ان القرآن الكريم - كما سبق بيانه -
نزل على الرسول (ص) تبلياً لكل شيء ، ولم ينكشف للناس
ذلك الايضاح الجامع فاما ان يبقى الكثير منه غامض السر فلا
تحصل الفائدة الكبرى من تنزيله والغاية القصوى من اعجازه ،
وان كان بحده الان غزير النفع ، لا يستطيع الانس والجن ان يأتوا
بمثله وان كان بعضهم لبعض ظهيرا ، او تنكشف له عالم امراره
الجليلة وبهر الناس اعجازه اكثر مما يلحسونه اليوم عندما يقفون
على تلك الاسرار الغامضة .

ان الله عز شأنه لم ينزل القرآن ليخفي على الناس ماحواه

من سر ونفع ، وإنما أنزله أصلاً للبشر ودلالة على وجوده
ووحدايته ، وهذا الشأن يحتم بأن يكون له أهل يعلمون تلك
الحقايق منه ، ليكونوا أدلة على الوجود والتوحيد وهداة للعباد .
وما أوثقت العلماء بالكتاب الأدلاء على ذاته وعبادته
إلا أهل البيت بعد رب البيت ، ولو لم يكن إلا هذا الحديث
دليلاً على تلك المنزلة القدسية للعترة لكفى به هادياً ودليلاً .
وإن مما يرشدنا إلى حاجة التنزيل إلى التأويل - سر
أودعه الله فيه - هو اقتحام الأمة من البدء حتى اليوم للقيام
بهذه المهمة الكبرى ، وما زال يتجدد هذا انقيام والاهتمام
في كل عصر وجيل ، وما زالوا قاصرين عن بلوغ سره الغامض
وقائده القصوى ، وما زال غامض السر مع اجتهدهم في التأويل
وكما زعموا أنهم كشفوا جانباً من مخبئاته عاد كأنه طلسم لم يحل
واختلافهم في تأويله ، واعترافهم بعدم الوصول لأسراره
كلها يشعرون بأن له أهلاً لا يعدوهم ذلك التبيان الجامع ، فإن
الله أعدل من أن يترك الناس في تأويله كحاطب ليل وعشواء
في ظلماء ، دون أن يجعل لهم مصباحاً يستضيئون بنوره ، ودليلاً
يسيروا على هدايته ، وما كان ذلك الاختلاف فيه وعشوتهم عن

بلوغ سره العجيب الا لصفحهم عن ذلك المصباح الوضاء ،
والدليل الهاد ، وما ذلك الصفح يخرج به عن الاضاءة والدلالة .

ولو كانت الناس على هدي في تأويله لاتفقت كلمتهم
واتحدت مذاهبهم فيه ، وايس الاختلاف من الكتاب نفسه ،
وكيف يكون فيه اختلاف وهو نازل منه جل شأنه ، ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

فاذا تجلى لنا ان الكتاب لا يستغني ابدأ عن المفسر العالم
بنزوله وتأويله فكيف يمكن التمسك بالكتاب اخذاً بتمامه
واحكامه وعبره وسيره من دون ان نرجع الى ذلك العالم بالتأويل
وكيف نكون آخذين بما حواه ونحن على ذلك الجهل
والاختلاف فيه .

واما التمسك بالعترة دون الكتاب فضلال حتماً ، لان العترة
حملة علم الكتاب ، والحاملون على تماميه ونصائحه ، فكيف يؤخذ
باهل التأويل ويترك التنزيل

على ان التمسك بالعترة دون الكتاب لا يكون ابدأ لانهم
لا ينطقون الا عن وحيه ولا يدعون الا عليه ، فالاعتصام
بهم لا ينفك عن الاعتصام بالكتاب وبالنازل منه وبالنازل عليه .

فبان لنا بعد هذا البيان ان التمسك لا يكون بالكتاب دون
قرينه العترة ، ولا بالعترة دون مصدرها الكتاب ، وانما يكون بالاخذ
بهما معا مقترنين ، وبعروتيهما معا متفقين ، بل ما هما الا عروة
واحدة لا يمكن التفكيك بين حلقهما التماسكة .

غير ان العترة اللسان الناطق للكتاب الصامت ، فلا
تقدر ان نتمسك بالكتاب من دون طريقهم ، لان معرفة ما فيه
يكشف خفاياه ، والتميز بين محكمة ومثابته ، وناسخه او منسوخه
وما سوى ذلك ، لا يكون صحيحا الا من بيانهم وايضا حهم .

العتره هادونه مهديونه

فأفقد الشئ. لا يعطيه ، فإذا كان التمسك بالثقلين طريق
الهدى والحقى كان الثقلان لامحالة هاديين مهديين ، ولا يجوز
عليهما الضلال كما لم يحز الاضلال ابدآ ، وهل يكون الضال هاديا
والجاهل معلما ، والعاقل عن الطريق دليلا .

إذن فما دام العتره مهديين وهداة ابدآ كان الهدى
باتباعهم ، والرشد باخذ تعاليمهم ، كما ان الضلال بالانحراف عن
سبيلهم ، والهلاك في اجتناب وادبهم — يا عمار ان سلك الناس
كلهم وادبا وسلك علي وادبا قال لك وادي علي ، فإنه
لا يضلك عن هدى ، ولا يدلك على ردى — .

فلو وجدنا في الناس من عاداهم وقاومهم فعادوه وقاوموه
عرفنا ان الرشد معهم والضلال مع من خالفهم ، هذا علي ومعاوية
وعلي والحمل ، وعلي والخوارج ، وذاك حسين ويزيد ، وهذا

زين العابدين والباقر وبنو امية ، وهؤلاء الصادق والأئمة من بنيه
وبنو العباس ، وعلى هذا القياس في غيرهم ممن حارب أهل البيت
أو عاداهم ، ونظر إليه أهل البيت نظر بغض وشنآن ، لا بد أن
يكون الهدى والحق والرشد مع علي وبنيه عترة المصطفى يدور
ذلك معهم حينما داروا ، والزبغ والضلال والباطل
مع أعدائهم ومحاربيهم تدور معهم حينما داروا ، لأن الهدى عند
ما كان بالتمسك بأهل البيت ، كان الضلال بالتمسك بأعدائهم
إذ لا يجوز أن يكون في الأمة إمامان متعادين في الله وفي الدين
وعلى الدين وهما معا هاديان مهديان ، والتمسك بهما معا
طريق الهدى والصلاح .

فلا ريب إذن في أن الهدى الف الصالح منهما ، والضلال
قربن الظالم منها ، إن الظالم لا تصح إمامته عند الناس فكيف عند
الله ، لا ينال عهدى الظالمين .

ولكن يعظم في النفس ضلال طوائف من المسلمين ،
وشقاء رجال لهم سبق إلى الاسلام ، وزبغ اناس جروا على
سنتهم ، وما ذلك الضلال والشقاء والزبغ إلا لانهم خالفوا أهل
البيت أو حاربوهم ، أو تركوا طرائقهم ومذاهبهم في الدين

وسلكوا مناهج أخرى لا ترضيهم .

غير ان الادلة تدفع ذلك الاستعظام ، فهذه آية الانقلاب
وذاك حديث الاقتراق ، وهذا حديث الحوض الذي يفتح
عن طردهم عنه حتى لا يبقى منهم الا مثل همل النعم وهناك حديث
تركبن أمتي سنة بنى اسرائيل ، الى كثير سواها ، وهاتيك الايات
والروايات اللواتي تجعل الهدى مع اهل البيت والملكاة بالتقدم
عليهم أو التخلف عنهم وان حاربهم حرب الله وحرب رسوله
وسلمهم سلمها مما يخرجنا استطراده او ذكر مفاده عن الصد
ولو اردنا ان نصفح عن امثال هذه المواقف المؤسفة ونبقى نحن
واهل البيت دون ان ننظر الى اولئك المعادين لهم لا يقنا بان
التمسك باهل البيت سلم النجاة وان الله تعالى لا يسألنا عن غيرهم
ان جهلنا حال ذلك الغير .

الامة واهل البيت

إن عموم قوله فيكم وما ان تمسكنم يشمل جميع الامة ، من دون استثناء لاحد كما سبقت الاشارة اليه فالامة بأجمعها من بدء وفاة الرسول (ص) حتى اليوم مسئولة عن التمسك بهم وما التمسك المنجى من الضلالة ابداً الا الاتباع لهم واطاعتهم ، وهل يأمرُونَ الا بما فيه الهدى والصلاح والسعادة ، او ينهون الا عما فيه الزيف والفساد والسوء .

ولو لم يكن لدينا آية أو رواية تهدينا الى طاعة العترة والاعتصام بهم الا هذا الحديث لكان به غنى في الالتزام ، كيف والبراهين على ذلك لا ياتي عليها العد .

ولكن هلم وانظر الى ما كان من الامة معهم من يوم وفاة النبي « س » الى اليوم ، وباليات انهم كفوا أو اكتفوا بالعصيان وحده ، دون ان ينالوا منهم ما لم يخطر ببال . حتى

تركوهم بين قتيل وسجين وطريد ومغيب ، فإن هم عن آيات التطهير
والمباعدة والتصدق وهل أتى غيرها ، واحاديث الباب والسفينة
وحرهم حربي وغيرها مما يسر استقصاءه .

انا لا اريد أن أبحث عن هذا الشأن فإن الناس لا تجهل
ما كان من الناس مع اهل البيت ، من البدء حتى الساعة ، واثني
تنامي الناس اليوم تلك الحوادث المؤلمة فالتأريخ خير مذكر ،
ولا اريد لفك الى ما عليه اولئك المحاربون لاهل البيت من
الضلال والزيف ، فانه لا يضركم من ضل اذا اعتديتم ، وان كل
نفس بما كسبت رهينة ، ومن احسن فلنفسه ومن اساء فعليها .
وانما اريد أن أوقفك على ما بوصلنا اليه هذا الحديث
الشريف من مكاتبة اهل البيت ، وما يجب علينا من الوقوف
إزاءهم . فان كنت اصبت القصد فيما كتبت فهو اقصى الارب
وان اخطأ فهمي وقلمي المهدف فلست من ارباب العصمة ، فعلى
اخواني من اهل الايمان ان يأخذوا بيدي الى سواء السبيل ،
ومحمود الطريقة ، فان المؤمن دليل اخيه المؤمن ومراآته ، وما
قصدي مما حررته الا وجه الله سبحانه والقلوب بيده ، والسلام
على اخواني المؤمنين جميعا راجيا منه تعالى لهم ولي التوفيق والهداية

والحمد لله تعالى وصلاته وسلامه على النخبة المستقاة محمد
والعترة الهداة بدءاً وختاماً .

وقد فرغت من تسويد هذه الرسالة في العاشر من شوال
عام ١٣٦٤ هـ في مدينة النجف الاشرف ، والقيتها في ثلاث
محاضرات في المجمع الثقافي الديني لمتدى النشر الاغر ورجائي
منه تعالى ان يجعله ذريعة لنشر الممارف الدينية وجامعة الاخلاق
والفضيلة ، وان يأخذ بيد مؤسسه وصره انه سميع مجيب .

آثار المؤلف المطبوعة

ميثم التمار

الشيعة والامامة

الثقلان

تأريخ الشيعة

الامام الصادق (جزءان)



اجدار
مکتبہ نینوی الحیدریہ
طهران ناصر خسرو مری